لقيطة

egypthacker1
Digitally signed by egypthacker1
DN: cn=egypthacker1, o=egypthacker1, ou=egypthacker1, email=e6c@yahoo.com, c=EG
Date: 2007.03.17 08:58:02 +02'00'



محمد عبد الحليم عبد الله

لقيـــطة

ليـــلة غرام

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

كتب عربى
(شـــراء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦١١٩٢١

كتب عربي
(شـراء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية
رقم التسجيل ٦١١٩٢١

مكتبة مصر

لقيطة

ليلة غرام

القصة الفائزة على الجائزة التى أنشأتها هدى هانم شعراوى

وقام بتوزيعها مجمع اللغة العربية

فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٥

تأليف
محمد عبد الحليم عبد الله

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



رب ارفع عنى لعنة ابوى . . .

مريم فخرالدين فى مشهد من فيلم ليلة غرام (المأخوذ عن لقيطة)

انتاج عبد الحليم نصر



عاشت ليلى وماتت زينب !

١

« هى طفلة ولدتها الرذيلة ! »

هذا ما تهامست به الأفواه فى الصباح الباكر فى ملجأ ج ... ملجأ اللقطاء ، لما دخلته طفلة جديدة فى يومها الثانى .

وفتح السجل وكتب اسم ليلى بعد آخر نزيل ، ولم يكن فى الخرقة التى لفت فيها ، والتى كانت نصيبها مما تستقبل الدنيا به المواليد — الا خصلة من شعر أصفر جعلت سوارا ذهبيا على معصمها الأيمن ، لكنه سوار رخيص لا يشترى ولا يباع .

وسميت ليلى ولم يكن لأبويها فى اسمها رأى ...

ووجدت فى قرية من قرى الريف على مقربة من القاهرة ، وعلى جانب من طريق سابلة تحت شجرة على رأس مزرعة خضراء ... ولابد أنها نامت تحتها طول الليل ، أو على الأقل شهدت فى هذه البقعة انجياب الغسق قبل أن يشرق عليها أول

شعاع من أشعة الشمس . ترى أين كانت سباع الريف ، فربما جاء الخلاص فى صورة ثعلب أو ذئب ؟

نامت عنها لأنها تريدها ، وطالما نادتها بالصراخ المختنق بعد أن طبعت أمهـا على فمهـا أول قبلة وآخر قبلة ثم أودعتهـا خرقتها ، ولمت ذيولها ، وتلفتت حولها ، وغابت فى الظلام ...

الأسرة فى الملجـأ مصطفة فى أبهائه الواسـعة وحجراته الفسيحة ، ينام عليها أطفال اختلفت ألوانهم وأسنانهم وأسرهم وطبقاتهم ، واتفقوا جميعا فى أنهم غرباء هبطوا الدنيا على غير رغبة منهم ولا رغبة فيهم . يرتفع بكاء طفـل أو طفلة هنا أو هناك فلايلبث أن يردد بكاءه كثيرون كأنما سرت بينهم العدوى التى تسرى فى الضفادع ، حين تردد النقيق جماعات اذا بدأت به احداها .

أما الخدم فانهم يروحون ويجيئون فى تبلد وفتور ، كأنهم يعتقدون أن أدنى الخدمة عظيم لهؤلاء الواغلين على المجتمع القاطعين عليه طريق سيره المنتظم ، كأنهم النغمة النـاشزة فى اللحن المنسق الجميل .

وتثاءبت المرضعات وتمطين ، ومسحن أعينهن قبل أن يجدن بلبـانهن على غير أولادهن . وجلست زينب وزليخا فقالت الثـانية :

ـــ صباح جميـل يا أختاه . أرجو أن يكون لبنك سخيا كوجبة عشاء البارحة !

فقالت زينب :

ــ انه أغزر مما تظنين ، لأنني أطالع اليوم وجهـا جديداً ما انفتحت عيناى على أروع منه ، فتعالى الى لترى أجمل زهرة تفتحت عنها أكمام الوجود !

ــ زهرة من حديقة الشيطان ! ما لنا وللأزهار يا زينب ... دعيها في حدائقها تجذب الناس بعبيرها والنحل بمفاتن ألوانها ، ودعي الندى يغسلها والهواء يرقصها ، فلسنا نعيش بين أزهار !

ــ لله درك يا زليخا ! أبدا تكذبين ما أقول وتفندين ما أعتقد !

ــ لله درى ! أى در هذا ؟ أهذا الذى رضعته أم هذا الذى أرضعه ؟ أما الذى رضعته فليس لله فيه شىء ؛ لأن أمى ــ رحمها الله ــ انما ولدتنى للشقاء . وأما الذى أرضعه فليس لله خالصا ، فنصفه بأجر ونصفه عقوبة . ألا ترين أن أجورنا في الملجأ لا تكاد تكفى حاجات من نعول ؟

ــ ألا تشعرين بحنان نحو هؤلاء الأطفال ؟ تذكرى مرة أنك ترضعين ولدك !

ــ ومتى يحين فطام كل هؤلاء ليقدموا لى حق الأمومة وأصبح غنية ؟ ومتى يصيرون شبانا وفتيات ليجعل الله لى في كل بلد نسبا وصهرا ؟ رحمك الله فما أشد ما تهذين !

ــ خلى بينى وبين قلبى ، فانى عطوف على كل هؤلاء ، ناشدتك الله أن تجيئى لترى هذه الزهرة ، ولتكن من حديقة الشيطان كما تقولين .

حدثونى أنها وجدت فى الريف فلابد أن عينيها الخضراوين هاتين قبستا اللون من نضرة الربيع . انظرى الى الضـــوء حين يخالطهما والى عمقهما اللانهائى وما عسى أن يكون كامنا فيهما من فتنة ستنتشر يوما فيخر لها الأبطال ، وهذا الفم الدقيق المختصر ، وهاتين الشفتين اللتين تستهويان النحل ، والشعر الذى لم يجر بين تلافيفه مشط ولا ماء ، ولم تتناوله بعد يد بتنظيم ولا ترتيب ، انه ذهبى فاتن !

لقد كان هذا الجمال خليقا بأن يولد فى مخدع أمير أو على فراش ملك ، ولكن الزمان جرى بغير قيـــاس : فهنا غواص يشق أطباق الماء ليبحث عن لؤلؤة فلا يجدها ، والبحر يقذف هناك على الشاطىء الآخر بدرة لا تجد لها لاقطا .

انظرى اليها ... نظيفة ، كأنها غسلت بالعطر باســـمة كأنها واثقة بالمستقبل، وادعة كأنها فىفراش أبويها ! كأنى بها يازليخا من أبوين كريمين خدعهما عنها لص ، وزج بها بين اللقطاء .

ــ خطبة بليغة وحنان مشاع ، وقلب عجيب الخلقة وســـع الناس جميعا ، وأخاف أن أقول : ووسع الأرض والسماء .

ــ لا فرق بينى وبين أم هـــذه الطفـــلة ، الا أننى أحببت فتزوجت وهى أحبت ولم تتزوج . وجمع بينى وبين زوجى حب وشريعة ، وجمع بينها وبين رجلها حب بلا شريعة . ولو كان فى الحوادث عظات ما وقع الا الحادثة الأولى ، وما كان فى هذا الملجأ الا لقيط واحد ، أو لقيطة واحدة على فرض أنهم أنشأوه .

هذه أحبت فخدعت ... ولا يزال النـاس بعدها يحبون ويخدعون . وهذا قتـل فقتل ولا يزال الناس بعده يقتلون ويقتلون . وهذا سرق فحبس ولكن لا يزال الناس يسرقون ويحبسون . تلك نزوات منذ درج الانسان على الأرض ووضع قوانين الاجتماع ، وستبقى الى أن تطوى السماء وتسير الجبال . أما العظة ... فلا عظة الا لمن عصمه الله .

وبقى ملجأ ج .. رابضا فى أحضان الصحراء ضاحيا للشمس طول النهار ، والعمل فيه كالمنظر الذى من حوله كلاهما جار على نسق واحد لا يكاد يتغير ... خدم يروحون ويجيئون فى الطرقات التى بين الأسرة يشرفون على حاجات الأطفـال ، وأطباء يفحصون المرضى ، وطهاة يجهزون الطعام ، ومعلمون يثقفونهم ليحملوا سـلاح الحياة ، وطفل أو طفلة تحل اليوم فيه ، وغلام أو فتاة تغادره بعد أن أخذت نصيبها منه .

والشمس تشرق فى الصباح فتلقى اليه سلام اللقاء ، وتغرب فى المساء فتحييه تحية الوداع ، وكل شىء فيه لا يتغير .

وليلى فى سريرها قد مر عليها عامان وأتمت عهـد الرضاع وألفت زينب بعـد أن طبعت احسـاسات الطفولة فى ذهنها صورة رأتها أربعة وعشرين شهرا وهى نائمة فى حجرها راضعة لثديها . وسواء ألهمتها الغريزة أنها هى التى ولدتها ، أم أنها بدل التى ولدتها ، فانها أحبتها على كل حال .

فلزينب كانت المناغاة والبسمات ، وبها كان الأنس والوحشة ،

واليها كان الشوق واللهفة . كل أولئك من طفلة على عتبات الوجود ما عرفت رياء الدنيا ولا نفاقها .

ولو أن قلب المرأة يتفلسف لجزى هذا الحب بالحب ، وهذا النداء بالاجابة . ولكنه غنى عن الفلسفة فالأم تحب كل طفل ، وتختص طفلها بنوع من الحب . فهل كان هذا موقف المرضعات فى الملجأ ؟

لم يكن كذلك على التحديد ؛ لأن المهنة تؤثر فى الوجدان وتقلل الاحساس بالألم واللذة ، وانك حين ترى أماً مكبة على طفلها ترضعه ، ترى كل جارحة من جوارحها تناديه بأن تغذ لتعيش ، وعش طويلا لأمك . وحين ترى مرضعة مكبة على غير طفلها ترضعه ، ترى كيف تكون الأمومة مهمة تؤدى وحرفة تحترف . ويخيل اليك أن كل جارحة من جوارحها تساوم الطفل فيما ينال من لبن مساومة صامتة بين قوى وضعيف .

غير أن أمورا خارجة عن كل هذا عطفت قلب زينب نحو ليلى ، فأحبتها وبسطت عليها رعايتها ، وأخذت ترقب فى وجهها كل يوم تفتح الجمال ، ووثوبه الى الاكتمال بلذة وشوق يفوقان حد الوصف . وتتبعها بصرها حين تحبو فى ثوبها الأبيض ثم تعود اليها فتتلقاها بقبلة حتى كأنها تقول : حرمت الجمال الفذ فيمن وتدت ولم أحرمه فيمن أرضعت ... انى أحبك يا ليلى !

وهكذا تجرى الطبيعة دائما على سنة « التعويض » ، فاذا قصت من طرف فى خلق زادت بديله فى طرف آخر : بصر كليل وسمع مرهف ، وجسم ضئيل وجناحان ينهضان به . هذا اذا

أريد للمخلوق البقاء ، والا فانه يولد ميتا ... وقد كتب لليلى أن تعيش فكانت زينب .

ولا تجد عاطفة من العواطف أقدر على النهوض بنفسها ولا أبقى على الزمان ولا أدور على اللسان من عاطفة الحب . وليس فى قصص العواطف أقدم ولا أوفر من قصة الحب ولأمر ما لفتت الناس وشغلتهم . والا فما الذى يدعو غريبا أن يطارد محبين اختلسا من الزمان ساعة وسارا فى طريق خالية ؛ ليعرف مدى سيرهما وغاية لقائهما ثم موعد رجوعهما ؟

قد يكون للعاذل العذر فىمراقبة الحب الجنسى، لأنه نوع من التشهى والتمنى يصحب الحرمان أو يكون قرين الجشع ، ولكن ما عذر ذلك الذى يريد أن يكشف السر عن محبة رجلين او محبة امرأتين ؟ ليس لذلك من سبب الا أن عاطفة الحب غراء محجلة بين العواطف .

كذلك كان شأن المرضعة ورضيعتها . فقد كانتا فى الملجأ حديث السادة والخدم ، وقامت المراهنات بين المرضعات على أن زينب تعرف أبوى ليلى أو أحدهما على الأقل ، وأنها تأخذ ثمن عطفها ورعايتها . وقال أناس : انها ستتبناها لتتخذ من جمالها وسيلة لصهر كريم أو رجل عظيم .

٢

قال ناظر الملجأ لكبيرة الخدم :

ــ ان الأمور هنا تجرى على غير ما يرام ، وان تفشى الحمى بين الأطفال لظاهرة مزعجة ان دلت على شيء فانما تدل على سوء الادارة واهمال النظافة . وقد كنت وضعت فيك ثقتى ولكنك عرضتنى لنقد الناقدين ولوم اللائمين . لقد بلغت نسبة المعزولين من المرضى درجــة عالية ، فأرجو أن تلاحظوا أعراض المرض وتبادروا بالعزل حتى يجىء الطبيب . وأرجو أن تضعوا لهذه الأمور حدا حتى لا تسوء المغبة .

قالت كبيرة الخدم :

ــ لقد تعبت من اصدار الأوامر يا سيدى وليس هناك من يسمعنى ، وأنا لا أكاد أجد فيها مخلصا فى عمله . انهم مستهينون بواجبهم الى حد بعيد يتعذر فيه أن أشكو اليك ، فهم كالبيت الذى لا يصلحه الا الهدم ولا ينفع فيه الترميم . فمرنى أنفــذ ما تأمر به .

قال :

ــ أبلغيهم جميعا أننى لن أتسامح مع أحد بعد الآن ، وانى سأوقع بالمتهاون أشــد عقوبة ... ولكن خبرينى ... هل ظهر مرضى جدد ؟

ــ ليس هناك الا طفلة واحدة عمرها ثلاثة أعوام واســمها ليلى ...

ــ حسن جدا . أرجو أن يكون الطبيب باذلا عنايته لانقاذ هؤلاء المساكين ، وأن ينفذ المشرفون على العلاج أوامره بدقة لتقل نسبة الوفيات .

ــ كل شىء سيرضيك حتما يا سيدى ... طاب يومك . فأومأ برأسه محييا .

ولم تمر فترة حتى اجتمع خدم الملجأ جميعا فى بهو من أبهائه ، ووقفت بينهم كبيرتهم تبلغهم انذار الناظر وتشديده النكير عليهم. فسرت فيهم حماقة الجاهل حين تدركه نعرة لا يعرف مصدرها . وأبدى فريق منهم الاستغناء عن العمل ، وزعم فريق ثان أنهم غير مشكورين وان بذلوا الجهد الجهيــد ، وانهم يؤدون من الخدمات ما يعدل أجرهم ثلاث مرات وكان الفريق الخائف من الوعيد أكثر بقليل من الممتثل المطيع .

وتناثرت فى حواشى الجمع كلمات غير مربحــة اشمأزت منها الرئيسة ، فأهابت بهم أن يعودوا الى الصواب ، وأن يعرفوا حقيقة المهمة التى نيطت بضمائرهم . فلم تجد أذنا واعية ولا قلبا رقيقا ، فعادت تتسخط على الزمان الذى طوح بها بين هؤلاء

الجهلاء ، والظروف التى أحوجتها لمثل هذه المهنة . ولكن صوتا نسويا رقيقا شق تلك الجلبة المختلطة وقال بلهجة حنون :

— سيدتى الرئيسة : لا تعقدى على أحد من هؤلاء أملا ، فكلهم غوغاء !

لم تكن المتكلمة سوى المرضعة زينب التى كانت مندسة وسط الجمع بقوامها الناحل ووجهها الساهم ، وعيناها عالقتان بالرئيسة وقد سبح إنسانا هما فى الدمع ، وكأنها كانت تعانى صداعا ، لأن ذراعها اليمنى محمولة على رأسها بحيث تدلت كفها الى جانب صفحة وجهها الأخرى .

وما ان طرقت أسماع القوم هذه الكلمة حتى غمرهم سكون انفتحت بعده الأفواه . فمن قائل : لا شك أنك من أسرة نبيلة خانها الزمن فجئت مرضعة فى هذا الملجأ . ومن قائلة : لابد أن لك اليوم سندا من رجل عظيم ، فنحن نحس دلالك فى هذه الأيام ! ومن قائل : دعوها فان ليلى بنتها مريضة بالحمى ، وهذا هو سر ثورتها عليكم . وأخيرا — والموقف خاطف لم يعط الرئيسة فرصة لوضع حد للجدل — تقدمت خادم بدينة مفتولة العضدين ، وأقبلت فى ثورة وصخب تقذف بكلمات السباب متداخلة متلاحقة ، وأمسكت بتلابيب زينب ثم لكمتها لكمة شجعت الحاقد والحاقدة ، ونبهت المغيظ والمغيظة فنالت من الضرب ما طرحها على الأرض .. جرت هذه الحوادث بسرعة ما تطرف العين أو يتراقص الشعاع . ثم انفض الجمع ومرت فترة أخرى ، واجتمع الخصوم فى مكتب الناظر . شرحت كبيرة الخدم ما لاقته هى وزينب من عنت القوم

وسوء أخلاقهم ، وأشار الناظر الى زينب بأن تتكلم ، فتعلقت أنفاس المعتدين وتوقعوا أنها ستكيل لهم التهم كيلا ، غير أنهم سمعوها تقول :

ـ سيدى الناظر ، لست متألمة من شيء ولا باكية على شيء الا على هؤلاء الأطفال ... انهم يأخذونهم بجريرة غيرهم وهم أصحاء ويهملونهم وهم مرضى .

ان لى فيهم طفلة لاأدرى لم عطف الله نحوها قلبى حتى أحس أننى أمها ـ لاقيت منهم فى سبيلها كل مرير ، وهى اليوم مريضة بالحمى غائبة عن نفسها . وقد سهرت بجانبها لأننى أحببتها ، فكنت رحمة عليها وعلى من حولها .

أزهار يا سيدى يلقى بها فى أتون مستعر ، فتأكل النيران نضرتها كما تأكل جفيف الحطب !

ولقد بكيت الليلة البارحة للطبيب الذى يعودهم ، ورجوته بدمعى أن يخفف عنهم آلامهم ، فنهرنى وزجرنى ، وزعم أننى أتهمه فى ذمته ، وأننى أكلفه وصل الأعمار . وأقسم لك ياسيدى أننى غير كاذبة ولا متكلفة ، فأنا رقيقة القلب عصبية المزاج يثيرنى منظر المتألم ولو كان طيرا !

وقد أحببت ليلى وأشفقت عليها وسأسهر بجانبها . آه لو رأيتها يا سيدى الناظر ، ورأيت عينيها الخضراوين وشعرها الأصفر ...

فقاطعها :

ــ بحسبك وكفاك ، وكفانى أيضا ما سمعت . انصرفوا جميعا وستعلمون ما آمر به .

هزت حوادث هذا النهار ملجأ ج ... هزة طفيفة الا أنها شعر بها جميع ساكنيه ، وخلقت روحا من الحذر والقلق فى نفوس الخدم ، وشيئا من الغيرة فى نفس الرئيسة ؛ فانها خشيت أن تنال هذه المرأة الطاهرة حظوة عند الرؤساء . وأيقظت انتباه المشرفين الى حد ما وان لم يكن كبيرا . ثم سارت الحياة بعد ذلك على نمط قريب من الأول الا أنه أقرب الى الحسنى .

وألقت الشمس تحية الوداع الى الملجأ فى كنف الصحراء ثم اختفت وراء الأفق ككل يوم ، ولف الظلام ذلك البناء الخشن . ومر هزيع من الليل ، ونام كل من هنالك ناعما أو غير ناعم .

وبدا للعين فى الملجأ جناح منعزل تلمع فيه أضواء زاهية ، وتدب فيه حركة غير عادية . ذلك هو جناح المرضى من الأطفال وقد بقى شطرا آخر من الليل على هذه الحال ، ثم نام الموكلون به فلا تسمع فيه فى الفينة بعد الفينة الا أنة لطفل مريض ضعيف ... تسمعها ضئيلة ممدودة كأنها من أعماق قبر .

وعلى سرير من السرر نامت ليلى سيئة الحال مرقوبا فيها قضاء الله ، وجلست بجانبها امرأة مكبة عليها ترفع وجهها الى السماء تارة ثم تهوى به اليها تارة أخرى . ولن يكون فى نساء العالمين من يجلس منها هذا المجلس سوى مرضعتها زينب .

ــ لهف نفسى ... انها تحتضر ... كأنى بها تحتضر ... أحقا أنها ستموت ؟

أغفلت عنها الذئاب هناك لتموت هنا على هذا السرير وليكون لها من عيون الناس عين تبكى عليها ؟

ربما كانت هذه حكمة أخرى الله أجلها من أجلها ! لا شك أن أبويها الآن نائمان ... ربما كانا حالمين وربما كانا ميتين ، فهما لا يعرفان عنها شيئا ، وهى لا تعرف عنهما شيئا.

شد ما تقطع القوانين ما تصله الخليقة ! وكم تحمل الطاقة البشرية من ألم تخفيه وكأنها لا تحمله ! لا شك أن أمها ككل امرأة تألم لما يقاسيه الناس وتبكى لما يبكى الناس له ، ولكن قانونا أحال قلبها صخرا فنزعت فلذة من كبدها وطوحت بها فى الفضاء .

وبعد . فقد فرضت عناية الله على ما أعفت أمها منه .. ليلى .. أتحسين ألما ؟ ما بالها لا تجيب ؟

آه ... سيدى الطبيب ... هل جئت ؟ يخيل الى أنها تموت !

قال بلهجة المتأفف :

ــ انها ليست ميتة وليست حية ... وقد تموت وقد لا تموت ... كل شيء بقضاء وقدر . ما هذا الجزع العجيب يا هذه ، أنت غنية بالحنان كما سمعت الا أنك ثرثارة ، فكفى عن الهذيان حتى لاتزعجى المرضى . أم تراك قد حملت عن المحمومين مئونة هذيانهم ؟

ــ عفوا يا سيدى فلن أتكلم ... غير أنى سمعت من الخدم أن هذا البيت كان منحوسا على أهله قبل أن يتخذوه ملجأ ..

فضحك الطبيب ضحكة خاطفة فاضت من جوانبها السخرية وقال :

ــ الآن عرفنا سر انتشار الحمى . ولم يلبث أن انصرف .

يعز على الانسان ألا يجد سببا واضحا لبعض أحداث تحل به ، وقد يكون السبب واضحا لديه فلا يؤمن به ، وانما يحيله الى شيء خفي لا يعرف كنهه ، وفي كلتا الحالين لابد أن يكون الحدث جليلا فى نظره . وذلك ما حمل زينب على أن تقول : ان الملجأ فى مكان منحوس . ولو لم تكن ليلى بين المرضى ما كان منحوسا ولا شؤما الى الحد الذى وصلت عقيدتها اليه . وأبدا يستهوى النفوس الخفاء أكثر مما يستهويها الوضوح .

ومرت ثلاثة أسابيع وجرت الخضرة من جديد فى عود ليلى المريضة ، وفارقتها علتها ولم يعد لها القضاء سلاحا فى هذه المرة أيضا ، لأمر أراده الله اما سعادة واما شقاء . الا أنه كان فى نظر المرضعة سعادة ونعمة تستوجبان الشكر والحمد . وأصبحت المرأة وقد ضحكت أسارير وجهها الناحل بعد أن أضر بها الحزن والسهر . وتهامس الخدم من جديد : انها ترى نفسها سعيدة لأن ليلاها قد شفيت .

ولكن قليلا ما يمر بالخاطر أن الموت قد يكون الى الصحيح أدنى منه الى المريض ، فقد عاشت ليلى وماتت زينب وتبادلا الموقف بعد شفاء ليلى بشهرين !

وعجب من فى الملجأ فضحك منهم ناس وبكى منهم آخرون . وبدأ الزمن يلغز ، وتعرضت الأقدار للطفلة مرة ثانية بعد أن

تحطم الزورق الذى عرض لها بنفسه فى البحر اللجى .

وجلس بعض الخادمات يسمرون ، فقالت زليخا :

ــ رحمها الله فقد كانت امرأة طيبة . والثمرة الحلوة دائما هدف القاطف ، لم يمهلها المرض الا ثلاثة أيام ثم ولت مأسوفا عليهــا ... أرأيتن ليلى يا صاحباتى ؟ لقد بحثت فى الوجود بعينيها الواســعتين عن وجــه كانت تراه كل يوم وتلقى من صاحبته البر فلم تجــده ، فألهمتها الغريزة أن تبكى دون أن تعرف أنها تبكى لفقدان حبيب . ثم جاء صباح ومساء ففتشت وبكت . انها أحبتها دون أن تعلم وحزنت عليها دون أن تحس. ومن يدرى ؟ لعــل روحها تجيئها فتشعر بوجودها ، ثم تنظر فلا تراها ، فتبكى لأنها خدعت أو خطف منها شىء !

فقالت احداهن :

ــ انا لله !

وجرى دولاب الزمان وأسدل على ذكر المرضعة ستار من النســيان ، وفترت العينان الخضراوان عن البحث وكفتا عن البكاء . وتوارت الذكريات وغابت الحوادث وسارت الأمور مطردة مستوية كصفحة الماء . ولا يزال خدم الملجأ يروحون ويجيئون ، وأطفال يدخلون وفتيان يخرجون . ولا يزال بناؤه رابضا فى كنف الصحراء تســبح فى أحشــائه أجنة كثيرة ، والشمس تحييه كل يوم فى الصباح والمســاء ... وكل شىء لم يتغير ، غير أن طفلة تدعى ليلى سلخت فيه أربعة أعوام من

عمر لا تدرى ما هو ؟ وفى دنيا لا تعرف ما هى ؟ ووقفت على باب حجرة الدرس لتدخل منه باب الحياة .

« ترى هل يقوى رأس رق فيه جمـــال الطفولة ودق فيه كمال التكوين ـ على استيعاب ما يقول المعلم ، وعلى احتمال خشونة التعليم ؟... اننا سنرى ! »

القسم الأول

فى ملجأ ...

٣

أرأيتها فى حجرة الدراسة فى يومها الأول ؟ انها تجلس فى الصف الأخير لأنها نامية الطفولة ، قوية النظر . وقد وضعت يدا بيضاء صغيرة على فم دقيق جميل كأنها تفكر !

وماذا عسى أن تفكر فيه الا أنها تحاول أن تستكنه المهمة التى جيء بها من أجلها وتفهم سر هذا الذى حولها !... ثم تتابعت الأيام ففهمت المدرسة ، وتوالت الأعوام فأنست بالدرس ، وتجلى عقلها الراجح كما تجلى جمالها الفاتن . الا أن طباعها كانت تجنح الى هدوء قريب من الذلة ، دان من الانكسار كلما تقدمت بها السن ، وغشى سماء عمرها المحدود سحاب من مزاج سوداوى منقبض اشتهرت به بين صاحباتها ومعلماتها .

ولو أتيح لك أن تجلس ساعة من ليل فى حجرة من حجرات الملجأ الواسعة لتشهد اجتماع تلميذات صغيرات هناك ـــ

لرأيتهن مكبات على العمل تحت أضواء المصابيح وفوق ظهور المناضد ، وقد جلسن جماعات ووحدانا وكلهن يعملن . ويندر لك أن ترى طفلتنا فى زمرة جماعة ، ولكنها فى هذه المرة رابعة ثلاث جلست بينهن وعلى وجهها كثير من الاشراق وقليل من المرح وشيء من التفاؤل حفزها الى أن تخرج عن طبعها . فقالت لمن حولها بصوت هامس حتى لا تسمعه « المراقبة » :

ــ أخواتى ... من تستطيع منكن أن ترسم لى أما ترضع طفلها ؟

سؤال عجيب واقتراح غريب لا شك أن لطبيعة الأنوثة وكامن الأمومة دخلا كبيرا فيه .

فعلا ثلاثتهن وجوم عجيب ، وأظهرن عجزهن فى ضم شفاههن واتساع عيونهن . وقلن لها :

ــ ما فينا من تستطيع . هل تستطيعين أنت يا ليلى ؟

قالت :

ــ بلا شك .

ثم جعلت تخطط فى ورقة أمامها كل ما راق وحلا .. أشياء متداخلة متشابكة أحس قلبها الصغير أنها تصور أما تفيض الحنان على وليدها .

وكثر التهامس بينهن وكن بين معجبة وناقدة ، وارتفع الصوت الى أن بلغ أذنى المراقبة فى طرف الحجرة الآخر . فقالت وهى منصرفة الى طرز بين يديها :

ــ ما هذا الصوت يا بنيات .. انصرفن الى أعمالكن .

قالت احدى الزميلات :

ــ لستُ أنا يا سيدتى ... انها ليلى ... تريد أن ترسم لنا أما ترضع طفلها .

قالت المراقبة فى عجب :

ــ ليلى ! أتتكلمين يا ليلى ؟

ثم سارت اليهن وألقت نظرة على ما بين أيديهن وأخذت الورقة منهن وسارت تتمتم بصوت لم تسمعه الا طفلتنا ، لأنها كانت فى فزع وانتباه ، قالت :

ــ ليت أمهاتكن أرضعنكن ! اذا لاستراح الناس من هذا العناء !

قالت ليلى بجرأة وتشوق :

ــ ولماذا لم ترضعنا أمهاتنا يا سيدتى ؟

فوقعت فى الحرج والتفتت اليها من جديد وأنعمت فيها النظر فأدركها حنان ، وأحست أسفا على ما بدر منها فمالت عليها وابتسمت لها وقالت :

ــ لأنهن متن يا ليلى .

قالت :

ــ اذا فمن التى أرضعتنى بعد أمى وأين هى ؟

فقالت :

ــ سمعتهم يقولون ان التى أرضعتك كانت تدعى زينب وقد ماتت ،

فرددت ليلى فى ذعر وعجلة :

ـ يا الهى ! أكل أم ترضع طفلا تموت بعد ارضاعه ؟ ولماذا لم تموتى يا سيدتى المراقبة ؟ أليس لك أولاد أرضعتهم ؟

فضحكت فى تشاؤم من هذا القيـــاس الغريب ، ثم انصرفن جميعا الى أعمالهن .

وعلق بنفس ليلى بعد ذلك كثير من التشكك حملها على أن يزيد تفكيرها فى نفسها كلما زاد عمرها عاما .

ولو كنت حاضرها فى درس من دروس الدين حين بدأ المعلم يكشف لهن عن وجود الله ، فقال كما يقول المعلمون :

ـ ان الذى صنع هذا الباب النجار ، والذى بنى هذا البيت البناء ، والذى طرق حديد الشباك حداد ، فكل شىء لابد له من صانع ، وكل موجود لابد له من موجد .

والسماء موجودة ، والأرض موجودة ، ونحن موجـــودون فلابد لنا من خالق ... هذا هو « الله » .

لو كنت حاضرها لسمعتها تقول فى استطراد وتؤدة وثقة :

ـ وهو الذى خلق الشجر وأطلعنا كما يطلع الشجر ...

ـ هو الذى أطلع الشجر وأوجدنا ... ولكن من أب وأم .

ـ وأين آباؤنا وأمهاتنا يا أستاذى ؟

ـ ماتوا جميعا ؟

ـ ألأننا جئنا هنا ؟

فيقول المعلم :

ـ نعم ...

ثم يقول فى نفسه :

ــ لم يموتوا لأنكم جئتم هنا ، ولكنكم جئتم هنـا لأنهم ماتوا . ماتوا وان كانوا أحياء ، فلكم جميعا رحمة الله !

وهكذا بقيت تسائل الناس طول مقامها عن الماضى المجهول لهذا الجمع المحشود . وتحل فى قلبها عقب كل سؤال ذرة من لوعة وحسرة ، حتى تجمعت الذرات فامتلأ قلبها بالحسرات .

وقد يكون هذا الذكاء وذلك الهدوء سلاحا فى الحياة لتلك الهفوة التى غافلت الشريعة ، والتى قضى الله أن تكون مبرأة مطهرة بعد تكوينها ووجودها كما يطهر الجلد بالدباغ . ولكن ماذا عسى أن يكون لهؤلاء الفارغات من المواهب اللائى هن مع ليلى فى ملجأ واحد ؟

لابد أن يعاملهن قانون المجتمع بما يعامل به الفـارغات من المواهب من غير بنات الملاجىء ؛ لأنهن مثلهن مبرآت مطهرات .

٤

أتريد أن تعرفها فى الثالثة عشرة من عمرها ؟ اذا فمد قامة الطفلة التى دخلت الملجأ فى الصباح الباكر ـــ الى قدر يملأ العين ولا يفوت الحد . واجعل فى هذه القامة قضفا ونحافة ، وأضف عليهـــا ليونة ورقة ، واجمع ما شئت فيها من أنوثة ونضـــج واجعلهما الى الاحتشام والانكسار والهدوء والتوقر . ثم صور وجها مستديرا ناظرا دائما الى السماء كأنه يفتش عن أناس كان يجب أن يوجدوا فلم يوجدوا فى الأرض ، وعينين طال هدبهما واتسعتا فشغلتا من الوجه أكبر ما يكون . وضربت خضرتهما الى خضرة البســـلة ، وجبينا واضحا ، وشـــعرا أصفر سهلا مسترسلا يوارى دائما ظهرها من خلف ؛ لأن وجهها الى السماء ، وفما دقيقا منطبق الشفاه نزر الكلام حلو التبسم .. ثم أسمع أذنك صوتا هادئا رزينـــا غير صخاب ولا متدفق لكى تعرف صوتها ، وانظر الى فتاة غير سريعة المشى كأنها سائرة تفكر أو

راغبة فى الرجوع — لكىّ تعرف مشيها . كأن هذا الذى بها ناشىء من ترددها على أعتاب الحياة يوم ميلادها .

واذا نظرت اليها شعرت أنها ضجرة بك ، أو حدثتها اختصرت فى الكلام . يحلو لها أن تفكر أكثر من أن تتكلم ، وأن تنعزل أكثر من أن تتصل ، وأن تراقب مصاير الناس أكثر من أن ترسم لنفسها مصيرا ... ولو كانت ربان سفينة لحطمت المجداف والشراع والسكان ؛ لأنها مستسلمة للأقدار وهى مع كل هذا تخشى الناس ، لأنهم مصدر بلواها ولابد أن تحيا فى مواطن البلوى .

هذه هى فتاتنا بعد ثلاثة عشر ربيعا قضتها فى دنياها الصغيرة ، وأصبحت بعدها فى برزخ بين وجود ووجود . فخيل اليها أنها فى مكان ليس بالملجأ ولا الدنيا ، وألقت بناظريها القويين الى أعماق الغد الغامض ، فلم تر شيئا الا الظلام ، فردتهما كاسفة البال مضطربة الحال . واعتقدت أن الدنيا امتحنتها بايجادها يوم ولدتها أمها ، فاجتازت هذا الامتحان لأنها ولدت وعاشت ، وسخر الله لها من حمى طفولتها من عسف الحوادث. وذلك شىء طبيعى ، فكثيرا ماتحمى الطفولة نفسها ، وكثيرا ما يكون فى الضعف قوة . ولكن ... ترى هل تجتاز الامتحان يوم تلج باب الحياة مرة أخرى وهىفتاة كاملة النضج تامة الأنوثة ؟ انها ضعيفة أيضا فى هذه المرة ولكن شيئا جديدا أضيف الى ضعفها ، قد يكون مصدرخير وقد يكون مصدرشر.

وتناول حديث الأتراب هناك أشياء خارجة عن جدر الملجأ ،

وتبدل المحور الذى يدور حوله السمر والذى يطوف حوله الخيال . وأبدت المستهترات من الفتيات عدم اكتراث باليوم الذى سيخرجن فيه ، وزعمن أن الله سيعفيهن — على الأقل — من سجن بلا ذنب ، من دير بلا ترهب ، وأن فى ميدان العمل مجالا ، وفى الأرض متقلبا للكريم وسعة .

وجلسن للغداء فقالت احداهن :

— ما بالك يا ليلى طويلة التفكير كثيرة الوجوم ؟ وكلما قرب اليوم الذى ستودعين فيه هذا المكان تضاعفت بلابلك وتراكمت أحزانك ؟ أأنت أول فتاة ستخرج ؟ لقد تركنا قبلك كثيرات وكثيرات ، فما رأيتهن أبدا فى مثل حالك . عفا الله عنك يا أختاه وأعفاك مما أنت فيه !

قالت ليلى :

— ان ورود الأول مواطن الهلاك لا يشجع الثانى بل ربما أفزعه . وماذا يعنينى اذا أنا مت أن أناسا قبلى قد ماتوا أو أنه لم يمت قبلى أناس ! « ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » .

— ألم يضعوا معك شيئا تستقبلين به الدنيا يوم تخرجين من الملجأ كاللاتى سمعنا عنهن من الفتيات ؟

فعراها كثير من الخجل وسكتت عن مضغ الطعام ، وأرسلت بصرها الى الخوان وقالت :

— علم ذلك عند الله ولا أريد أن أعلم عنه شيئا .. انى اذا سألت عن هذا كنت حسنة الظن أو كنت مخدوعة ... ليت

هؤلاء الناس وقفوا منى موقفا سلبيا فلم يمدوا يدا بخير ولا شر ! أيصلنى المال بحياة تقطعت بى فيها الأسباب ، والنسب يا أختاه لا يباع ولا يشترى ؟ انى لست برمة بشىء ولكننى أزن الحمل قبل أن أحمله ، وان كان حتما على أن أنهض به ، فسأحمله ثقيـــلا أو خفيفا . ولن أفر منه وان أنقض ظهـــرى وخارت من فداحته قواى .

ـــ وان كنت ستحملين العبء فلم لا تضحكين ؟ فلأن تموتى ضاحكة خير من أن تموتى باكية . ولم كل هذا يا ليلى ومعك جمالك الفاتن وعقلك الرجيح ، أعطينى جمالك وهبينى عقلك ثم اقذفى بى فى الجحيم وأنا أعدك بأن أعيش .

فضحكت فى مرارة ، وعبثت بالسكين فى يدها ، وأرسلت اليها ناظريها الأخضرين طويلا ثم قالت فى هدوء :

ـــ هذا موطن العـــلة ومناط الفزع ومثـــار الهموم . ليت الجمال شىء يطرح اذا لاطرحته ، ولو اطرحته ما تبدل موقفى من سيىء الى حسن . غير أننى بذلك أعفى من انتباه مزعج ، لأبلى باهمال مميت .

ان الجميلة والدميمة منا معشر اللقيطات محتاجة الى حماية المخلص الأمين : فهو مع الأولى يحمى جمـــالها من أن يزل ، ومع الثانية يحمى دمامتها من أن تهمل . وهل هناك على الجانب الآخر من الحياة رجال يحملون هذا القلب ، ويتحلون بذلك الضمير ؟ ان أمهاتنا جميعا بلين بغير هذا الصنف من الرجال الذى نعقد عليه الآمال ، فأخطأن وفررن من الخطيئة ، وحملنا

وحدنا رزءها. وسيكون الناس منا فريقين : فريق مؤاخذ مثقل يقف فى طريقنا ويسألنا : من أين جئتن والى أين أنتن ذاهبات ؟ وفريق مخفف مهمل يتفضـــل علينا ويقــول : دعوهن يمررن ويحملن أوزارهن وحدهن . نحن فى شأننا وهن فى شأنهن ! أما المعين المسعد ، المتسامح السهل الكريم المواتى : فقد عز حتى على غير اللقيطات !

فساد الجميع صمت ، وتناثرت هنا دمعة ، وانبعثت هناك زفرة ، واختلجت قلوب كثيرة بالخوف من مستقبل مجهول ، وقمن عن الطعام وكل منصرفة عن أختها الى نفسها ، فترجع الى المـــاضى وتقول : ليت يوما ولدت فيـــه قص من شريط الزمن ! ثم تفكر فى المســـتقبل وتقول : أو يوما سأخرج فيه يقص من شريط الزمن !

ومر شـــهر على ذلك الحديث وتلك الحوادث ، وسرت فى الملجأ حركة كثيرا ما تسرى فيه ، لأن فتاة توشك أن تغادره فى هذا اليوم ... ولم تكن سوى ليلى .

٥

كان ناظر الملجأ متجها اليها وهى واقفــة أمامه ، لأنه كان معجبا بها محبا لها فقال لها :

اليوم آن لك يا بنيتى أن تخرجى من هذا المكان الى الدنيا . وقد هيأ الله لك ظرفا حسـنا فعطف نحوك طبيبا كبيرا رقيق القلب كان يتردد على الملجأ فى الحين بعد الحين ليعود مرضاه ويزودنا بنصائحه ، فلما رآك أحب أن يؤثرك بفضله ويختصك بعطفه ويضمك الى رعايته ، ويشرف على تعليمك فن التمريض فى مستشفاه الخاص . ذلك يا بنيتى هو الدكتور ك... وها هو ذا آت ليأخذك ، وسمعته غنية عن التعريف .

ولقد شكرته بما لك على من حق ، واستوصيته بك خيرا ، وما أظنك الا راضية بما اخترنا لك متفائلة بما سيلقاك . فقالت :

ــ شكرا لكما يا سيدى . اننى موافقة .

وانضم كثير وكثيرات ممن حول الناظر وممن يعرفن ليلى ، فشجعوها وبثوها أملهم بأنهم يرقبون لها التوفيق والنجاح .

ثم تسلمت ليلى ما كان يحتفظ به لها الملجأ .. أتذكر ما هو ؟ خصلة من شعر أصفر ، جعلت سوارا ذهبيا على معصمها الأيمن، لكنه سوار رخيص لا يشترى ولا يباع . فتسلمتها بأنامل مضطربة وقلب حائر ، ودستها بين طيات ثوبها ومشت مشيتها غير السريعة ، كأنها ماشية تفكر أو راغبة فى الرجوع .

ترى ماذا يدور فى هذا الرأس الجميل ، وكيف تنظر ليلى الى شعرات أمها الصفر ؟

أتقول : ليتنى أراها ! أم تقول : ليتها ما رجلته ! ويفيض قلبها حنانا أم يفيض قلبها نقمة ؟

انها كانت ذاهلة عن نفسها وهى أقرب شىء اليها ، وأكبر الظن أن عاطفتها نحو أمها فى هذه الساعة لم تكن مستبينة .

ثم كرت نحو صاحباتها تودعهن آخر مرة . وما كادت تصل اليهن حتى نوديت من جديد لتقابل الناظر ، فعجبت وعجبن . ولما رجعت اليه ودخلت عليه رأته ضاحك القسمات متهلل الأسارير ، فوقفت بين يديه ولم تسأله عما يريد ، ولكنه قال بكلمات سريعة فرحة :

ـ اسمعى يا بنيتى ... اسمعى يا ليلى ... قد جاء كل شىء فى الوقت المناسب فاحمدى الله . وصل الى بعد أن خرجت رسول من لدن سيدة كريمة يحمل سوارا ذهبيا تبرعت به لأذكى فتاة فى الملجأ ليكون لها رأس مال وعونا على الزمان يوم

تخرج . فخذيه يا بنيتي بارك الله لك فيه ... ثم وقعي على هذه الورقة .

ولم يكن أحد ممن حضر ينتظر شيئا الا أن تمسك ليلى القلم لتوقع به ولكنها ظلت جامدة صامتة ثم أقبلت عليه تقول :

ـــ سيدى الناظر : أهذا هو الذهب الذى قال لنا عنه المعلم : انه معـــدن نفيس رنان ؟ ... لقد عرفته ... شكرا لك فلا حاجة لى به ...

ثم اغرورقت عيناها بالدموع وقالت :

ـــ انه لا يقوى على وصل آصرة بينى وبين حيوان خارج هذا الملجأ . أنا لن آخذ شيئا أكثر مما تركته لى أمى ، لا أنا وارثة ولا مورثة ! اجعله للتى تلينى ياسيدى ودعنى أوقع على هذه الورقة .

ففعل وفعلت ، وفغر الجميع أفواههم ، وسمعوها تقول :

ـــ طاب يومكم !

فقالوا :

ـــ طابت حياتك !

ثم كرت من جديد نحو صاحباتها تودعهن ، فقلن لها قبـــل كل شيء :

ـــ خيرا ... لم دعوك من جديد ؟

قالت :

ــ لا شيء ... انه سوار ذهبى .

فقاطعنها :

ــ لعله جميل ! أين هو يا ليلى ؟

فقصت عليهن القصص ، فقلن لها :

ــ ترى أنت فيلسوفة ؟ أم يا ترى أنت مجنونة ؟

وكان الموقف باكيا بين الأتراب حين آذنت أجمل فتاة بوداع الملجأ .

وكانت قبلات ... وكان دعاء وتفاؤل . ثم تلفتت حولها لتلقى نظرة أخيرة على مهد طفولتها ومدرسة تعليمها وملعب صباها استرجعتها مخضلة بالدمع . ثم سارت والكل حزين كأنها كانت كافلة الجميع . فقالت إحدى المتظرفات لتخفف من جفاء الموقف :

ــ ليلى ... أنتم السابقون ونحن اللاحقون .

فابتسمت فى ألم :

ــ لم تفعلى جديدا يا أختاه . ان الموسيقا تزف العروس الى الخدر وقد تزفها الى القبر .. الوتر واحد والنغم يتغير ؟ وداعا جميعا ...

ثم سارت وسرن . وصر باب الملجأ الحديدى الضخم وانفتح لتخرج منه فتاة دخلته طفلة منذ ثلاثة عشر ربيعا ، ثم صر ثانيا وأغلق وأطل من بين قضبانه الحديدية المتقاربة وجه نوبى قال

صاحبه بلهجة نوبية : « مع السلامة » ... وكانت آخر كلمة سمعتها من هناك !

ولا يزال ملجأ ج ... رابضا فى كنف الصحراء تحييه الشمس مرة فى الصباح ومرة فى المساء ، ولا يزال أطفال يدخلون ويخرجون ، وخدمه يروحون ويجيئون ... وكل شىء فيه لم يتغير ، الا أن ليلى لم تعد فيه .

القسم الثانى

فى مستشفى الدكتور ك...



فى مستشفى الدكتورك ...

١

مستشفى الدكتور ك ... الجراحى فى حى هادىء من أحياء القاهرة تطل أروقته الجميـلة وشرفاته الواسـعة على حديقة صغيرة ، يمتع بها الناقهون أبصارهم كلما بدا لهم ، وتحمل اليهم العطر والشـذا والنسيم . وليس يقصـد هذا المستشفى الا القادرون من الناس ، فيقل أن تجد الشارع أمامه وقت الزيارة خلوا من السيارات والمركبات الخاصة . وتستطيع أنت بعد ذلك أن تعرف ، ولو على وجه التقريب ، ما فيه صاحبه من سـعة حال ، وما يدره عليه من مال .

والدكتور ك ... رجـل قارب الخمسين من عمـره ، ليس بالطـويل ولا القصير ، غير منظم الجسم ولا واضح القسمات ، تخالط سمرته صفرة ، ويدل منظر ملامحه على الجمود ، والتردد ، ولكنه طيب القلب محب للخير واثق بالله . الا أنه يعطى من قلبه أكثر مما يعطى من ماله ، فتودده وحنـانه أيسر عنـده من القرش وأرخص من الجنيه .

وهو بعد كثير الاستشارة حريص على رضا زوجه ملق اليها بزمام نفسه وقياد أمره .

وفى مستشفى هذا الطبيب جرت فتاتنا شوطها الأول من أشواط الحياة ، فانضمت بليلى قطرة واحدة الى نهر عظيم يجرى من بدء الخليقة الى أن تنتهى الخليقة ، ولكن تلك القطرة لم تندمج فى تياره ولم تتصل أبدا به ، كأنها لم تكن من طبيعة الماء .

قال لها الدكتور ك ... :

ـ هذا هو المستشفى الذى ستتلقين فيه أصول التمريض يا ابنتى ، ونحن هنا نحرص على راحة نزلائنا ؛ لأنهم يدفعون الينا بأجور كبيرة . فأرجو أن تحققى ما أتوسمه فيك من خير واخلاص . ولما كنت لا تملكين اليوم مسكنا تأوين اليه ، فقد جعلت لك سريرا تنامين فيه الى أن تعثرى على مسكن ... بقى شىء آخر : هو أننى جعلت لك مرتبا قدره ثلاثة جنيهات ، وأنا مستعد لأن أزيد هذا القدر فى اليوم الذى تبين فيه صلاحيتك ويظهر فيه اجتهادك . فهل يرضيك هذا المبلغ ؟

قالت بانكسار :

ـ ثلاثة جنيهات ؟ هذا كثير . وستكون راضيا عنى ان شاء الله .

فقال :

ـ حسن . اذن تمرين غدا على كاتب المستشفى لتأخذى منه قرضا على مرتبك لشراء ما تحتاجين من ملابس وأثاث

تستطيعين الآن أن تذهبي لترى عملك ، ويمكنك الاعتماد على احدى زميلاتك فى قضاء شئونك الخارجية حتى تنهضى بنفسك ... أرجو لك حظا سعيدا !

ووقع بصرها فى ذلك المبنى الأنيق على محفات تجيء وأخرى تروح ، ومقاعد متحركة تنقل المرضى من مكان الى مكان ، وأناس يسرعون لأنهم فىخدمة أناس ــ فرأت قدرا مشتركا بين مكان تركته وآخر دخلته : تركت وراءها ضعفا منطفولة وفقرا من نسب ، ورأت بين يديها ضعفا من علة وفقرا من صحة . فقالت تحدث نفسها : ليت شعرى أهذه هى الحياة ؟

« لا تعجلى يا ابنتى ! فأنت لا تزالين فى يومك الأول ، وان كان عمرك ثلاثة عشر ربيعا أو يزيد ... وقد ادخرت لك الدنيا ما لم تدخره لفتاة ! »

وتهامس من هناك :

« لقد جاءت زميلة جديدة ... أوقعت عليها أبصاركن انها جميلة ! »

ولا بد أن طبيعة المرأة قالت فى نفس كل منهن : « ليس لاحدانا بعد اليوم حق فى أن تدعى لنفسها الجمال . »

وفى اليوم الثانى كنت تراها مكبة على مكتب الكاتب لتوقع أنها تسلمت عشرة جنيهات ، وأمسكت بالنقود للمرة الأولى :

ــ أهذا هو المال ؟ ذلك الذى شغل النفوس وأذل أعناق الرجال ! لقد عشت فى الملجأ بدونه وما أحسست أنه ضرورة . ولكن من يدرى ؟ لعله ضرورى لى فى هذا المستشفى .

ثم مشت الحياة هادئة رتيبة متشــابهة الاصباح والامساء ، بعد أن استبدلت ليلى بثوب الملجأ الأبيض ثوبا أبيض ثانيا لكنه من نوع جديد . وأخذ ذلك الجسم النحيف ينتقل بخفة ورشاقة فى طرقات المستشفى ويتنقل كالنحلة بين حجــراته ، وقد كور الشعر الذهبى تحت القلنسوة البيضاء . وفاض حنان من نوع جديد على المرضى هنــاك ، وفاض جمال من نوع جــديد على المرضى هناك أيضا . وفنيت فى نفوسهم نفس لم تجد لها قريبا تفنى فيه وخالت أن حياتها من ذهب مسروق ، فبدأت تبعثر فيه بكلتا يديها ذات اليمين وذات الشمال، وتصل به من يستحق ومن لا يستحق ، لتقربه من اليوم الذى ينفد فيه ! !

وكان العمــل ملهاة عظيمــة لها ، فزاد الســكون فى طبعها المستوحش ، وقويت العزلة فى نفسها المنفردة ، واستحال ما فى قلبها من نقمة على خلقها الى رحمة فى أناملها جرت على الناس . كأنها تكفر دون أن تقصد عن سيئة جناها غيرها ، وكأن الثمرة حملت خطيئة الشجرة !

٢

قالت أحلام الممرضة لكبيرتهن :

ــ ان زميلتنا الجديدة شاذة الطباع غريبة الخصال : هى أبدا صامتة لا تتكلم الا اذا سئلت ، كأن أبويها علماها الصمت بعد أن علماها الكلام . وأعجب ما فيها أنها فانية فى عملها الى حد يستوقف النظر ، ويلوح لى أنك لقنتها دروس التمريض بسرعة فى هذه المدة القصيرة يا سيدتى الرئيسة .

فقالت :

ــ انها ذكية يا أحلام . وأضيف الى معلوماتك عنها شيئا جديدا هو أنها متشائمة كأنها تحمل بين أضلاعها سرا .

قلت لها مرة وأنا أعلمها كيف تحل اللفائف وكيف تربطها وكيف تنظف الجراح : هذا هو الصديد ... انه شيء يجب أن يزال ... أتعرفين الصديد يا ليلى ؟

وأقسم أننى كنت أداعبها لأبسط من نفسها المنقبضة فابتسمت لى وقالت : « نعم أعرفه ... وقد رأيته كثيرا الا أنه

من نوع غير هذا ! » ثم مدت بعد هذا يدا لطيفة الأنامل بدأت تعمل فى دقة وحذر . فقلت لها : « حسن ما تفعلين ... أرجو لك حظا سعيدا . » فقالت : « فى أن أطبب الجراح ! »

وبعد ، فما يعنينا يا فتاتى من أمرها شىء . ان المستشفى يريد منها حسن عمل ، ونحن نريد منها حسن معاملة . أما سرها فهو لها ، وأما الفضول الذى يملأ نفسك فلك أن ترضيه اذا استطعت الى ذلك سبيلا ، وأظنك ستستطيعين .

لم تكن ليلى تعد أمر نسبها سرا من الأسرار ؛ لأنه شىء سيكشف عنه الدهر فى يوم من الأيام . ولم تضعه من نفسها موضع التصون ؛ ولكنها لم تجعله أيضا على طرف لسانها تلقى به الى من يشاء ومن لا يشاء ؛ لذلك لم يكن أحد من الناس يلاقى كبير عناء فى الكشف عن أمرها ، وان ظنت زميلاتها فيها غير هذا الظن . كما أن الدكتور ك ... لم يشأ أن يقول : انها لقيطة ، أو ربما ألقى بهذا الخبر بقصد أو بغير قصد الى أحد من الناس لم يكن وسيلة صالحة لنشره بين من كانوا هناك .

وفى المساء دخلت أحلام على فتاتنا حجرتها متصنعة أنها حزينة مهمومة ، واقتحمت عليها عزلة النفس وعزلة المكان وقالت لها :

— طاب مساؤك يا أختى ... لا عليك فأنت فى راحة هذه الليلة . وأما أنا : فلا على أيضا ؛ لأن القسم الذى أرعاه يغط فى نوم ويسبح فى أحلام ... ما أصعب المهمة التى فرضها علينا العيش ! انها اللقمة يا ليلى ، انها اللقمة ... يهب لها الفقير

جســـمه وعقله حتى ينقلها من يد غيره الى يده ، ولو كنا من بنات الأغنياء ما عرفنا الكد ولا النصب ولا عانينـــا من دهرنا ما نعانى .

تعالى نلق نظرة على البيوت من حولنا ، ونقف قليلا فى هذه الشرفة ...

انظرى ! هل ترين هذه النافذة المضيئة ؟ تلك فتاة جالســة ولا شك أن التى بجوارها هى أمها ... انهما تتكلمان باهتمام بالغ ! أتستطيعين أن تخمنى يا ليلى موضوع حـديثهما ! أنا أقول : انه فى رسم مستقبل . هذه كفها تعلو وتهبط لأنها تؤكد بها الحديث ، وبنتها تطرق كأنها خجلة ، وتبتسم كأنها فرحة ، ويطول بها السكوت كأنها تحلم وهى يقظى !

ثم سكتت قليلا . ولم تكن ليلى فىمثل شغل زميلتها ولكنها كانت فى شغل عما ربط الأم ببنتها والبنت بأمهـــا ... كانت فى شغل بالأمومة الواضحة والبنوة المرعية ، لأنها حرمتهما !

وعادت أحلام فوصلت الحديث :

ــ ما أجمل منظرهما ! ليت أمى كانت قريبة منى ! انها هناك فىأطراف الوجه البحرى ولا أراها الا فىالأعياد . وأنت ياليلى، لعل أمك قريبة منك ولعلك لا تعانين مثل وحشتى ؟ (قالتها وكأن نفسها تذوب ألما)

فقالت ليلى فى ذهول :

ــ انها أبعد مما تظنين ... انها هنـــاك ... فى أطراف الوجه القبلى !

ــ فى أطراف الوجه القبلى ! لنا الله فكلنا غريبات ... أأنت من أسوان ؟

ــ نعم من أسوان ، وبالقرب من الخزان .

ــ وماذا أتى بك الى القاهرة ؟ ان البعد شاسع ؟

ــ حملنى الفيضان !

ــ انك تمزحين . أنا أعرف أن أهل أسـوان تغلب عليهم السـمرة ، ووجهك يا ليـلى ليس عليه السـحنة الاقليمية الأسوانية . فمن أين أنت على التحقيق ؟

ــ من أسوان ... الا أن ماء الفيضان غسلنى يوم حملنى فابيض وجهى . وأثر فى عينى « الطحلب » من طول مكثى فى الماء فاخضرت عيناى . وأثر « الغرين » فى شعرى فاصفر بعد سواد ... أبعد هذا ترين فى أمرى عجيبا !

وضحكت فى هدوء ، وأغربت زميلتها فى ضحكة رنانة .

وصر جرس فى حجرة مريض ، فأدركت أحلام أنه فى قسمها ، فأفاقت من ضحكها والتفتت الى ليلى وهى تسير وتقول :

ــ سأرى ... وسأعود .

ثم خرجت فقالت ليلى فى نفسها :

: لابد أنها راجعة لتكمل التحقيق . فلله ما يلقى الناس من النـاس ! ان ثمرة التفاح من شجرة التفاح ، وثمرة الرمان من شجرة الرمان ، وليلى من أب وأم . وهل يعنيهم حين يأكلون تفاحة أو رمانة أن يعلمـوا : أين غرست شجرتها ومن الذى غرسـها ؟ هم يشـغلون بطعمها لا بزمانها ولا مكانها . فلم

لا يجرون على هذا القيـاس فيلهيهم حاضرى عن ماضى ، ويشغلهم شخصى عن أبوى ؟

لو أننا ولدنا أنفسنا لألغينا ولادتنا ، فمن فعل المستحيل مرة فعله مرة أخرى ، فقد أخرجه من دائرة الاستحالة الى دائرة الامكان . ولو وقف بنا على عتبة الوجود قليلا لنقرأ صفحات دستوره ، ونرى قوانين معاملاته ، ثم خيرنا بين الدخول والنكوص لاخترنا أن نرجع الى حيث العدم ، لا أن ندخل الى حيث الشذوذ .

ولدنى مجهولان ثم كلفانى أن أعرف النـاس من هما ؟ ولا يفتر الناس عن أن يسألونى ، وهم هم الذين زوروا لى أبا يوم استقبلونى ... لقنونى شهادة الزور ، ثم استحلفونى قبل أن أشهد !

ثم عادت أحلام مبهورة الأنفاس من كثرة الضحك ، وأخذت تقول بصوت متقطع :

ـ أتدرين ما الذى حدث يا ليلى ؟ انه مريض ظريف عاودته الحمى ... ولما دخلت عليه أنشأ يقول كأنه يناجى فتاة : اغفرى لى ... أنا أحبك ... لا أستطيع أن أعيش بدونك .

فنضحت جبينـه حتى أفاق ولم أقل له شـيئا حتى لا يخجل ... ترى أمرض من الحب ، أم أحب من المرض ؟ ان الحب شىء متعب ... هل أحببت يا ليلى ؟

ولا تسل عن برمها وضجرها بهذا السؤال ، ولا عن برمها

وضجرها بالسائلة . ولكن كان عليها أن تجيب لأنهـا تتودد الناس . فقالت :

ــ نعم أحببت .

ففتحت أحــلام عينين ظافرتين واعتقدت أن الحظ واتاها فكشفت عن سرها الدفين ــ وقالت :

ــ أحببت .. أهذا صحيح ! ترى من ذلك السعيد الذى فاز بوجهك الجميل وقلبك الطاهر ؟

فقالت :

ــ أحببت جميع النــاس ، ولم أحب أحدا من الناس حتى أبوى !

ــ ترى أنت جاهلة أم متجاهلة ؟

ــ صدقينى يا أختاه .

فقالت كأنها تسخر :

ــ يا لها من صورة جميلة واضحة عنك يا ليلى : أنت من أســوان من جانب الخزان ... حملك الفيضان وأثر فى وجهك فابيض ، وفى عينيك فاخضرتا ، وفى شعرك فاصفر . وبعــد ، فأنت أحببت جميع الناس ولم تحبى أحدا حتى أبويك !

ما هذا اللف والدوران ، وما هذه الطرق الملتوية ؟ افسحى من صدرك للناس يفسح الناس لك من صدورهم ! لاتحزنى . سأجيب بنفسى عن السؤال الذى سألته لك .

وتكلفت الرقة واستعادت الرضا ، ثم شرعت تقول :

ــ ما الحب يا ليــلى ؟... أترين فيه شــيئا شائنا أو غير

طبيعى ؟ انه تفتح النفس للنفس ومناجاة القلب للقلب . وكل شيء فى الوجود يحب شيئا : فالزهر يخالف بين ألوانه ليسقط عليه مختلف النحل ، والزمان يأتى بربيعه ليشعر أهله بالرضا والسعادة ، وليكفر عن برد شتائه ووقدة صيفه . وكل راقص فى الوجود غمرته نشوة الحب وكل مغرد فى الحياة غمرته نغمة الحب . فهو فى دم الأحياء وفى طبع كل موجود !

وأنا ... قد أحببت ... أحببت ابن عمى وسيخطبنى الى أبى ، وأن أبى ليرحب به .

ثم استولى عليها الموقف فاستطردت :

ــ آه لو رأيته يا ليــلى ! انه وسيم جميل ، مرجل الشعر براق الثنايا ، حليق اللحية والشارب ، أنيق ، ظريف ، ساحر الـــكلام !

فقالت ليلى :

ــ وما دمت قد أحببت أفيجب أن أحب ؟

ــ تحبين ؟ قلت لك يا ليلى : انه شيء غير شائن . ثقى بى واتخذينى أختا لك ، ودعينا نتقاسم الآمال والآلام والا ثقلت علينا الدنيا .

ــ اذا كنت تريدينى أن أحب فقد أحببت ... أو أنا أحب !

ــ حسن . لقد قاربنا أن نتفاهم .

ومالت على كرسيها وألقت اليها سمعها وقالت وهى تبتسم فى سرور :

ــ حدثينى ياليلى عن حبيبك وسأزيدك الحديث عن حبيبى.

ـ أحببت غير ابن عمى : ليس فتى ولا وسيما ولا جميلا ، غير مرجل الشـعر ولا واضح القسمات ، ولا هو أبيض وانما هو أسـمر يضرب الى الصـفرة ، غير براق الثنايا ، حليق اللحية طويل الشـارب ، ليس بالأنيق ولا عهدت فى كلامه سحرا !

ـ لعله شيخ فات الأربعين !

ـ هو ما تقولين .

فقالت فى سخرية لتحملها على الصدق :

كأنه الدكتور لـ ...!

ـ وهل فى هذا عجيب : رجل يرعى عيشى ويحوطنى من الزمان ... أنا لا أعرف للحب معنى غير هذا .

ـ معذرة فقد كنت مخطئة ... ليس حبيبى الشـاب الذى حدثتك عنه ، انه رجـل آخر . أتعرفين من هو ؟ انه أبى ... أنا لا أنام الليل من هجره .

ثم ضحكت لتمحو ما عساه أن يكون آلم صاحبتها .

ووقف الحديث بين الفتاتين عند هذا الحد ، وأصبحت عطلة الاسبوع ، فرغبت أحلام الى ليلى أن تخرجا معا فوافقت ليلى ، لأنها تريد أن تساعدها فى شراء بعض الملابس والأثاث ، وأن تفتش معها عن غرفة لتسكن فيها .

وامتد بهما السير ، وأخذت أحلام تعلق على كل ما يصادفها فى الطريق شأن فتاة موغلة فى المرح مطرحة للاحتشام ، واثقة من جاذبيتها وان لم تكن جميلة ، وليلى منصتة ساكتة ، أو

باسمة موافقة . وسادت بينهما روح من الزمالة غير قوية ولا ضعيفة .

غير أن ليلى كانت محتاجة اليها حتى تفرغ من شئونها ثم تعود بعد ذلك الى عزلتها التى ألفتها ـ ان شاءت .

ووقفتا على دكان أثاث قديم ، اختارتا منه سريرا صغيرا ومنضدة وكرسيا ومرآة ـ دفعت ليلى ثمنها ثم تركت كل شىء الى أن تعود فتنقله .

وبعد دوران فى الأحياء ، ومساءلة البدال والكواء ، وجدت حجرة ليلى .

حجرة فى الطبقة الرابعة فوق سطح المنزل الواسع بناها البانى وحدها لساكنة خلقت وحدها .

لها شباك واحد يطل على الشارع وفى تجاهه الباب . ويأخذ نظر المطل من ذلك الشباك أول ما ينظر ، بيت كبير يزيد طبقة عن البيت الذى ستسكنه ليلى .

قالت صاحبة المنزل لليلى وهى امرأة عجوز مات عنها زوجها وترك لها بنات تزوجن جميعا وتركنها .

ـ أيسكن معك أحد يا بنيتى ؟

فقالت :

ـ لا .

ـ ومن تكون هذه الفتاة التى معك ، أهى أختك ؟

ـ ليس لى أخوات ... انها أختى على كل حال ، وسأسكن عندك وحدى وليس معى أحد ، أهناك مانع يا أماه ؟

ـ لا لا يا بنيتى . ان بيتى أمين يسكن طبقاته جميعا أسر محتشمة ، ولقد أحببتك للنظرة الأولى لأن فيك شبها من ابنتى التى تزوجت بعيدا . تزوجت هنا موظفا وانتقل الى أسوان فبعدت عنى . ولو كنت أحسب للغيب حسابا ما زوجتها من موظف يتنقل .

قالت أحلام :

ـ لقد تزوجت فى بلدك يا ليلى .

قالت صاحبة البيت :

ـ أأنت من أسوان يا ليلى ؟ لابد أنك تعرفين زوج بنتى فلانا ... أتعرفينه ؟

فأجابتها :

ـ لقد غبت عن أسوان عامين . وسأبلغه تحياتك عند رجوعى .

فقالت :

ـ حسن تعالى على الرحب والسعة ، وانقلى متاعك ، وأقيمى فى رعاية الله .

وما جاء المساء حتى رتب الأثاث فى الحجرة وأضىء فيها مصباح . وسجل لها لأول مرة أن تنتفع بمكان لا يشركها فيه أحد .

ثم ودعتها أحلام ، فقبلتها قبلة أودعتها الاعتراف بالجميل ، وأوصدت الباب واستسلمت لوحدة طويلة .

٣

ليس الأصل فى النفس أن تكون موحشة أو خاليـــة من الانسان ؛ لأنها كالبيت لايبنى الا ليسكن . فهو اذا خلا خرب، واذا خرب انهدم ، والنفس المنعزلة لابد أنها اتصلت ، ثم لأمر ما ضاقت بالصلات فأفرغت من الناس ، كمثل ساكنى الأديار : انهم كانوا قبل هذه العزلة أشد ما يكونون اتصالا بالحيـــاة واســـتمتاعا بمباهجها ، ثم لعلها تركتهم فتركوها ، أو قطعتهم فقطعوها . أما أن تخلق النفس موحشـــة خالية فذلك قليل . وهى مع هذا صالحة للاتصال مصلحة به ، كالكهف يخلق فى الجبل ماجوفه أحد ، لكنه يقبل السكنى وتزيل ظلماته الأضواء .

والليلة الأولى فى مكان من الأمكنة آهل الليالى بالخيال ، والخيال فيها أخصب مايكون . من أجل ذلك أحست فتاتنا بالعزلة وهى جالسة الى نافذة غرفتها تسرح الطرف فى أرض مجهولة

كتب لها أن تعيش فيها فتاة . كما كتب لها أن تولد فى أرض مجهولة تقلت منها طفلة فسبحت فى وجود غامض وليل مظلم ، وان كان القمر فى سواء السماء يرسل أشعته الفضية على الكون فيغمره بالنور والسرور .

وترامى الى سمعها من البيت التى تجاهها صـوت امرأة تقول : « هذا كذب ... لا تعود نفسك الكذب يا بنى ، وكن صادقا فى كل ما تقول . » وزج حديث المرأة بنفسه وسط تيار خواطرها ، وهى لا تزال جاعلة من ذراعها متكآ لرأسها على حافة النافذة ، فقالت :

ــ أيجب أن يكون الانسان صادقا فى كل ما يقول ؟ اذا لقد أتيت فى حديثى مع أحلام شيئا نكرا . وجعلت من نفسها سائلة ومسئولة ، ثم أخذت تسأل وتجيب :

ــ ما اسمك أيتها الفتاة ؟

ــ ليلى !

ــ وما اسم أبيك ؟

ــ ليلى !

ــ وما اسم أمك ؟

ــ ليلى !

ــ أتجيبين على الحقيقة ، أم تجيبين على المجاز ؟

ــ طبعا على المجاز . فلن أكون أبا وأما وابنة .

ــ اذاً فمن أبوك ؟

ــ أحد من الناس .

ــ أله دين يحفظه وفضيلة يرعاها ؟

ــ كلا بالطبع !

ــ ومن أمك ؟

ــ امرأة من نساء العالمين .

ــ ألها غير دين أبيك وغير خلقه ؟

ــ هما متشابهان !

ــ ما بلدك ؟

ــ أرض الله كلها بلدى .

ــ اذا فلا أصل لك !

ــ كأننى خرافة فى ذهن الزمن ، أو كذبة أطلقها لسانى .... لا تثقلى يا ليلى على ليــلى ، فان اللقيطة منا تستحى من غير اللقيطة ! هبيها سقطت من السماء أو صلصالا نفخ فيه . هبيها رمى بها بحر أو انفتح عنهــا قبر . هبيها فقدت ذاكرتها حتى نسيت نسبها ووطنها . هبيها أى شىء تحبين ولكن لا تؤلميها !

ــ وهل يفرض الناس الفروض ليريحوا الناس ؟

ــ ألا ليتهم يفرضون !

ثم مسحت بعد ذلك دمعتين سالتا على وجهها الناضر .

وانقضت بعد ذلك فترة سمعت بعدها خفق نعل متثاقلة على سلم المنزل ، فأدركت أنها صاحبته ولابد أنها آتية اليها . والا فمن الذى يجىء ؟ فحمدتها لأنها ستنقذها من نفسها ، وتفصل اللقيطة من غير اللقيطة . وطرق الباب فخفت وفتحت :

ــ تفضلى يا أماه .

ــ مساء سعيد يا بنيتى .
ــ مساء سعيد يا أمى .
وجلستا على السرير الصغير متجاورتين .
وقديما اشتهر العجائز بالثرثرة كأنهن يسردن فى كل مجلس ما لاقين فى عمرهن الطويل ، وعلى الجالس أن يسمع كارها أو غير كاره .
وتمكنت العجوز فى جلستها ؛ لأنها تريد أن تجعلها طويلة ولا تريد أن تتعب . ثم حركت فكها فى الفضاء مرتين أو ثلاثا كالشوط الذى يجريه الفرس قبل السباق ، وقالت :
ــ قلت لك : اننى أحببتك للنظرة الأولى يا ليلى ؛ لأن فيك مشابه من ابنتى ــ حفظك الله واياها ــ لذلك وددت أن أجلس معك ما دمت وحدك ... أنا يا بنيتى قليلة النوم يندر أن أنام قبل الساعة الثالثة ... وكثيرة الأحلام ، وذلك لشغلى بناتى مع أنهن فى أحضان أزواجهن وكلهم رجال طيبون . ولكن هذه طبيعة الأم ، تجدينها فى تعب دائم وهم ناصب وان كان أبناؤها سعداء !
ــ هكذا الدنيا يا سيدتى . من سعد فيها بنفسه شقى فيها بغيره !
ــ صدقت صدقت ... وشقاؤها أكثر من سعادتها .
ولكن لماذا جئت الى القاهرة وحدك من هذا البلد البعيد ؟
(وأعفتها من أن تجيب واستطردت) : ان الجو فى أسوان قاس ، وزوج بنتى يشكو منه ، وكلنا نريد أن يعود الى هنا

ولكننا لانستطيع . كل شيء بارادة الله ... لم تخبريني لم جئت من هذا البلد البعيد ؟

ــ أجاءني الى القاهرة ما أذهب زوج بنتك الى أســوان . كل منا يطلب العيش !

ــ هو كذلك تماما . ولكنك يا بنيتي صغيرة وجميلة وماكان ينبغي أن يتركك أبواك هكذا تعيشين وحدك ، والدنيا يابنيتي كلها شرور في هذا الجيل .

رحم الله زمنا مضى كان للرجال فيه حياء العذارى ، وللنساء فيه طهر الملائكة ! أما هذا الزمان فكفانا الله بلاءه ، وأحسن لنا فيه الختام . لا .. ما كان ينبغي لهما أن يتركاك هكذا أبدا يا ليلى .

واتنظرت الجواب .

ــ حقا ما كان ينبغي لهما أن يتركاني ، ولكنهما تركاني ... لأنهما ماتا !

ــ ماتا ! رحمهما الله وقد قلت : انه ليس لك أخوات .

ــ ولا اخوة .

ــ لقد أحزنتني . اذا لقد مات أبواك صغيرين ... ليته كان لي ولد فزوجتك منه ! وأين تشتغلين يا بنيتي ؟

ــ ممرضة في مستشفى الدكتور ك ...

ــ أعرفه ، فقد عمل فيه زوجي عملية جراحية كانت سبب وفاته .. رحمه الله ورحم أبويك يا ليــلى . ان من حق الميت على الحي أن يدعو له بالرحمة دائما ... وصادف ان امرأة فقيرة

كانت تسكن فى حينا هذا بالقرب منا ، مات زوجها فى نفس الليلة التى مات فيها زوجى ، كأنهما على ميعاد . وترك لها طفلة صغيرة ، وكانت فى عسرة من أمرها فاشتغلت مرضعة فى ملجأ ج ... وكثيرا ما كنت أعطف عليها وأصلها لأنهـا كانت طيبة القلب ... رحمها الله فقد ماتت هى أيضـا من نحو ثلاثة عشر عاما .. طيب الله ثراك يا زينب .

ـ رحمنا الله جميعا فكلنا ميت ، هذا من تحت التراب وهذا من فوقه .

ـ صدقت يا بنيتى ... أظننى أطلت عليك ... آن لى أن أنصرف لتنامى (ثم نهضت واقفة) طاب مساؤك ... اسمعى يا ليلى : هبينى أمك . أنا دائما فى خدمتك فلا تحذرى شيئا .. أنا أحبك لأن فيك مشابه من ابنتى ... ومتى تسـافرين الى أسوان ؟

ـ عند ما يجىء العيد .

ـ أيام الشباب كلها أعياد ... طاب مساؤك مرة أخرى .

وعاد الى ذهنها ذكر زينب ، وكانت قد حدثت عنها هناك ، فودت لو أنها كانت مسمومة الثدى أو مريضة الدر !

لقد أرادت أن تحييها ، ولا تدرى أنهـا أماتتها . ولـكن عفا الله عنها ،فما كانت تقصد الا الحسنى .

ثم عاد الى ذهنها من جديد حديث الصدق والكذب .

لو أنها حدثت العجوز بقول غير مأفوك لثرثرت به فى كل مكان .

ما يجب دائما أن يكون المرء صادقا مع غيره ونفسه ، ولابد للعيش من زور وغرور ؛ لتجد على الأرض العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، والفقير والغنى ، والجميل والقبيح ، ولتبقى الأشياء متميزة بأضدادها أبدا . فان الساعة التى يثبت فيها لدى الحى انه فارغ من كل ميزة ، خال من كل موهبة — لا شك أنها آخر ساعة فى حياته .

وارتاحت ليلى الى تلك الخواطر قليلا ورضيت عن نفسها بعض الرضا فنامت حتى الصباح بعد يوم كثير المتاعب . وليلة طويلة السمر .

٤

وأسرعت الأيام خطاها ، ومر عام متشابه الشهور متكرر الأيام . وفتاتنا تسلك طريقا واحدا من البيت الى المستشفى لا يكاد يتغير ، حتى كادت تحفظ ألوان أبواب حوانيته ، ومواضع انحنائه وتعرجاته ، وكل شيء فيه .

ولها من ثرثرة العجوز فى البيت موضع تسلية ، وداعية ملل ، وصحيفة أخبار . ولها من زمالة أحلام أنموذج من فتاة ملأها الشباب فملأت به الجو عجيجا وضجيجا ، فهى لا تفتر عن بثها الشكوى أو بثها الأمل : هذا خطاب جاءها من ابن عمها من هناك ينقم فيه على الأيام التى فرقت بينهما ، والتى تؤخره خطوتين الى الوراء كلما خطا نحو اتمام الزواج خطوة . وهذا خطاب آخر منه يرسم لها فيه كيف يهيىء لنفسه ولها حياة هانئة فى عش غرام سعيد . وهذا خطاب من أبيها يشكو لها ضائقة حاله ، وقلة ماله ، وكثرة عياله ، ويرجوها فيه أن تمده بما يفضل عن حاجتها لاخوتها الصغار ولو على سبيل القرض —

وأحلام عصبية المزاج ، غربال أسرار ، لذلك لا تفتر أبدا عن تحميل صاحبتها عبء أمورها ، وتكليفها رسم حياة لها أمتع وأهدأ . وليلى فسيحة الصدر طويلة الانصات ، مشيرة بقدر ما تستطيع .

ثم خرجت الأيام معها عن طبعها الهادىء وسيرها الرتيب ، وعاد جزر الحياة فألقى بها فى الخضم بعد أن قذف بها المد الى الشاطىء . فلتسبح مع السابحين أو تغرق مع الغارقين .

مرض الدكتور ك ... ولزم فراشه بضعة أيام وكثر عواده والسائلون عنه . وكانت ليلى من العواد . كان ذلك فى أمسية من الأمسيات التى ليس فيها عمل ، حين استأذنت عليه فأذن لها ، ودخلت عليه فى فراشه وحيته وزوجه . ثم جلست وقد أثقل أجفانها الحياء وشاب خديها الخجل ، وربكها أول موقف من نوعه وقفتــه فى حياتها ، فهى فى بيت رب نعمتها وبحضرة امرأة غريبة لا شك أنها تعرف سرها . ولم يكن لها من شاغل الا أن ترسل بشعرها الى الوراء فى غير حاجة ، وتبعث بتنحنح هادىء فى غير عذر ، وتردد بين الفترة والفترة فى أدب واستحياء قولها : « لا بأس عليك يا سيدى الدكتور . عافاك الله » .

وألقت عليها المرأة التى بجوارها نظرة من سمائها لا أدرى كيف وصلت اليها والبعــد شاسع والطبقــات كثيرة ! فرأت أجمــل صــورة خطها قلم الله فى صفحة الوجود ، فأدركتها ولا شــك غيرة المرأة من المرأة ... أدركتها الغيرة من دمية بلا روح ، ومن زهرة بلا ريح ، ومن روضة حزينة ما غنى على

عذباتها غريد . ظنت فى جمالها كبرياء فهاجمته ، ولو كان ثوبا يخلع لخلعته قبل أن تدخل عليها .

قال الطبيب ليقطع حبل الصمت الذى طال :

ـ كيف الحال فى المستشفى يا ليلى ؟ (ولا بد أنه سأل كل زائر أتاه هذا السؤال) .

فقالت :

ـ كل شيء سيرضيك يا سيدى الطبيب .

فسألت زوجه فى برود :

ـ أهذه هى فتاة الملجأ ؟

فأجابت ليلى فى خشوع :

ـ نعم أنا ... هى !

وتحكم الرغيف وهو ـ على لينه ـ أقسى من الغل ! قد كانت تستطيع أن تقول لامرأة غيرها تعرف سرها : ولم تسألين ما دمت تعرفين الحقيقة ؟... انك صاحبة فضول !

ولم تلبث أن انصرفت ... جاءت تسجل الفضل فلحقها النقص !

قال الطبيب لزوجته :

ـ ذكرتنى حين قلت « فتاة الملجأ » بفتاة المرقص . وفتاة المقصف ، ونحو من ذلك .. ما كان ينبغى لك أن تسأليها مثل هذا السؤال فقد آلمتها وهى بعد فتاة رقيقة الحس طيبة النفس حسنة الأخلاق .

ـ وهل فى الحق ما يؤلم ؟



هل تصافح فتاة من الملجأ ؟ !

ــ وهل يؤلم الا الحق ؟... كم يؤلم الدميم أن يقال له : أنت دميم ، وهو أعلم خلق الله بذلك ! وكم يؤذى الشرير أن يقال له أنت شرير ، وهو أشد الناس ايذاء للناس ! على أنها لا ذنب لها ، انما ورثت تركة مدينة .

فقالت كأنها تداعبه :

ــ دكتور فى الفلسفة !

ــ بل فى الجراحة ... وأنت فى التجريح . وابتسم ثم قال :

ــ لو كنت رأيتها يا زوجى العزيزة يوم ذهبت لآخذها من هناك ، ورأيت الموقف الغريب الذى وقفته ، لامتلأت نفسك اعجابا بها وتقديرا .

ثم قص عليها قصة السوار الذهبى ، فأغرقت زوجته فى ضحك طويل وقالت :

ــ انما أرادت أن تقدم لك شهادة بحسن السير والسلوك . شد ما تمتعت بدهاء مبكر ! أرادت أن تضرب لك مثلا فى الزهد والرضا والقناعة ، لتكسب ثقتك من اللحظة الأولى . أو لعلها مولعة بالمواقف التمثيلية ، فجعلت من حجرة ناظر الملجأ مسرحا لتلك الرواية ، وصحبك أثر خلقه الخيال الى دنيا الحقيقة ، والناس يذرفون الدمع فى المسرح ثم يضحكون على بابه ، وأنت تبكى يا زوجى العزيز مشاهدا وغير مشاهد !

لاشك أنك رجل طيب القلب ، غير أن مرضاك فى المستشفى من طبقة خاصة من الناس . فلا بد أن تكون ممرضاتك كذلك .

وتثاءب الطبيب لينام فأمسكت زوجته عن الكلام .

ترى هل ترك هذا الكلام السيىء أثرا فى نفس الرجل ؟ لابد أنه ترك أثرا لم يحسه هو نفسه لأنه لم يرتب عليه عملا . والناس يتأثرون دائما فى معاملاتهم بالأفكار القديمة التى كونوها عن الناس ، كمدرس الانشاء يرجع الى الدرجة القديمة قبل أن يقدر الموضوع الجديد .

وأصبحت ليلى وقد تشاءمت من حوادث أمس ، وأيقنت أن الزمان تنبه لها ، وأن سرها المطوى عن كثير سيضحى كتابا منشورا يقرؤه كل من يشاء . وخيل اليها أن تسير فتقول لكل من يلاقيها : أتعرفنى ؟ اننى ليلى اللقيطة ! خيل اليها أن تفعل هذا لتريح قلبها المعنى وخاطرها المبلبل . ولكن أيجوز ؟ وان جاز ، أتستطيع ؟

وأوغل الزمن فى سخريته ، وثرثر كما تثرثر جارتها العجوز.

فانها لسائرة بعد أيام فى احدى طرقات المستشفى ومارة بحجرة الدكتور ك ... واذا به واقف على بابها يودع زائرا كريما عليه ، ونظرت فاذا به رجل يعرفها . دعاها باسمها وقال للطبيب :

ـ لعلك مسرور من بنتنا ! انها كانت عندنا من أحسن الفتيات . واستوصاه بها خيرا .

ولابد أن أحد الناس كان قريبا منهم فسمع الحديث أو عرف شخصية ناظر الملجأ ، فكشف القناع وانقشع الضباب . وأخذ من فى المستشفى جميعا يتهامسون :

ــ هل تعلمون ؟ ان ليلى الجميلة لقيطة ! لن يغنى عنها جمالها شيئا .

وقالت الممرضات :

ــ هل علمتن ؟ ان ليلى المخلصة لقيطة ! لن يغنى عنها اخلاصها شيئا .

فقالت احدى المتظرفات :

ــ وماذا يا هؤلاء فى أنها لقيطة ؟ ربما كانت كريمة الحسب عريقة المحتد ، فلا تسخرن من الناس .

فتضاحكن .

وما قالت لهن ليلى يوما : « ماذا قلتن أو ماذا تقلن ؟ » غير أنها كانت تحس أن لهجتهن فى نداء اسمها تغيرت ، كأنما أصبحت حروفه حروفا جديدة .

وماذا تصنع ؟ انها كانت تجرى الى غاية محتومة : فالأيام التى تمر فتنقص شيئا من عمرها ، هى نفس الأيام التى تمر فتظهر شيئا من سرها . الى أن يفشى المكتوم ويوارى الجسد !

ثم أوغل الزمن فى سخريته وظهر على جارتها العجوز فى ثرثرته .

فانها لجالسة ذات مساء فى حجرتها تناجى الهم وتنادم الأحزان ــ واذا بالسلم يخفق : لا شك أنها العجوز ... لابأس فسأسمع أخبارا جديدة : هذه ولدت ! وتلك فى شهرها الخامس ... أما فلانة فانها مقترة على نفسها ... وفلانة

لا تحسب للغد حسابا ... ولكن ما هذا ؟ انها ليست وحدها !
وطرق الباب فخفت وفتحت :
تفضلى يا أماه .
مساء سعيد يا بنيتى .
ـ مساء سعيد يا أمى ... أهلا بك وبمن معك . وجلسن .
قالت العجوز :
ـ هذه بنتى ثريا التى فى أسوان . حنت الى وحننت اليها فبعثت اليها فجاءت تزور . هذه هى التى أحببتك من أجلها ! انظرى اليها ... شعرها أصفر يقاربه شعرك ... وبياضها : لو لم يكن أصفى قليـلا من بياضك لكنتما متشابهتين فيه ... وقوامها : انه أكثر اعتدالا وأغنى بضاضة ، ومع كل فقوامك جميـل ... أما العينـان : فأنت تمتازين بخضرة العينين ... ولكن لا تنسى ما فى عيونها من سحر ... ان زوجها مفتون بعينيها حتى لقد جعلها قسمه عليها .
ويعلم الله أن ثريا كانت باهتة الشعر ، سمينة العود ، مافيها سحر ولا فتنة ـ اذا نظرنا اليها بغير عينى أمها !
واستمرت العجوز تقول :
ـ هذه ليلى يا بنيتى ساكنتنا الجديدة . وهى فتاة محبوبة فيها كثير من أدبك وكرم أخلاقك . وقد سرنى أنها من أسوان ويبدو لى أن أهل هذا البلد كلهم طيبون !
قالت ثريا :
ـ يا للمصادفة الحسنة ! أأنت من أسوان يا ليلى ؟

ـ نعم من أسوان .

ـ اذاً تعرفين حى كذا وحى كذا ، والتاجر فلانا أشهر تاجر هناك هل تعرفينه ؟

ـ أنا من أسوان ولـكن ليس على التحديد ، فقد جرت عادة الريفيين أن يذكروا اسم أشهر بلد قريب منهم فى الاقليم ، لعدم شـهرة القرى والدسـاكر التى يكونون من سكانها . وقليـلا ما كنت أنزل المدينـة لأننى محمولة المئونة مقضية الحاجات . ثم أرادت أن ترشوها :

ـ على أن مدينة القلب هى الوطن . والقاهرة مدينة قلبى يا أختاه ، فيها أمك يا ثريا وهى أمى ، وفيها مستشفى الدكتور ك ... وهى مورد عيشى !

وكأنما توسلت اليها بلهجتها الحزينة ألا تثقل ، فانصرف بهن الحديث الى أغراض بعيدة عنها ، حتى حان فاستأذنتا وخرجتا .

٥

هذا هو السيد الأمين نزيل مستشفى الدكتور ك ...
رجل آتاه الله الحكمة واجتباه وهداه .
شيخ تقى نقى عالم زاهد ، تقرأ فى وضاءة وجهه ودعة قسماته آية الرضا والقناعة والقبول .
تألفه العين للنظرة الأولى وتطمئن اليه النفس، للوهلة الأولى، كما تطمئن الى اليقين ، وتركن الى السلام .
لحية بيضاء خفيفة مستديرة كأنها طفاوة الشمس أو هالة القمر . وعينان استعانتا بالمنظار من طول ما سهر صاحبهما عابدا أو قارئا أو كاتبا ، وشفتان لاتفتران عن التسبيح والتحميد فى حركة خفيفة وهمس ضئيل ؛ لأنه لا يسمع الا الله .
بعثت به الأقدار فى طريق ليلى حين أدركها ليل الحياة ولفها ظلام الوجود ، فكان له فى نفسها أثر بالغ ، وفى حياتها صدى عميق .

وهذه هى ليلى مكبة عليه ووجهها مشرق وثغرها باسم تعالج جرحه الذى كاد يبليه ، وهو يرسل اليها من عينيه الضعيفتين نظرات عفة قانعة كأنه يتأمل روضة أو جمال زهرة — وقد لفت عليه الضمادة وقالت :

— أراك اليوم بارئا يا أبى . وقد اجتزت مرحلة جزعت عليك فيها نفسى فالحمد لله !

وسكتت برهة ثم انفرجت شفتاها عن بسمة مرة حزينة وقالت :

— ليت جراح النفوس كانت تطيب !

ألف طبيب وألف دواء حشدت للجسم ، ولا أرى لداء النفس طبا ولا دواء !

وضحكت مرة أخرى لتقلل من أهمية الحديث .

فتحامل الشيخ على نفسه ، وألقى برأسه على حشية الى شباك السرير حتى كان نصفه جالس ونصف نائم ، وأجرى يدا عارية الأشاجع على لحية طالت لما أغفله عنها المرض ، ثم قال بصوت هامس سمعت فيه ليلى نبرا لم تعهده أذناها من قبل :

— بنيتى ... ليلى ... أنا شيخ عركت الحياة وطالت صحبتى للزمان . أكل الدهر رطبى وترك يابسى وجفيفى ، والصلة بينى وبين السماء دائمة قوية . وأعتقد أن لى آخرة آهلة ... ولكننى جزعت ... جزعت من العلة ، وغمرتنى وحشة ومخاوف حين أحسست أنى على أعتاب الأبدية ، وشعرت أنى متعلق بالدنيا .

متعلق بها وهذه حالى ؟ فما بالى أراك على غير ما أرى عليه الشباب ؟

شد ما نازعتنى نفسى منذ أحسست بنفسى الى أن أقتحم عليك استيحاشك وألج عليك محرابك !

ولكننى ترددت حتى وجدت الشجاعة ، ففعلت .

ثقى بى يا بنيتى ، فلا بد من شكوى الى ذى مروءة وتخففى قليلا من ذلك الهم ، فان عودك اللدن لا يقوى على احتماله .. ما خلقت للهم أعوادكن انما خلقت له كواهل الرجال !

فقالت :

ـ أنا فى ظلام من دنياى يا أبى ، لا تشرق على شمس ولا يحيينى شعاع ! أنا لحن غير مطرب ... أنا سر كان يجب ألا يذاع وحديث كان يجب ألا يشاع ! أنا كلمة غير واضحة ولا مفهومة ! أنا مبتدأ ما له من خبر ، وفعل ما له من فاعل ! أنا واغلة على مائدة الوجود ، أطعم والناس بى برمون ، فلا أنا ممسكة ولا هم راضون !

أنا يا أبى ... أنت لا تدرى من أنا !

أنا خرقة كانت فيها طفلة ، أبى الملجأ ، وأمى المرضعة ، ما استقبلتنى قابلة ، ولا استمتعت بلثمات أم ، ولا استمعت الى أغنية فراش !

أنا لقيطة ولست أخجل منك ! أنا لقيطة !

هذا هو سرى وقد علم به كل من حولى .

ثم نظرت اليه بطرف دامع وقلب واجف : لأنها ستسمع الحكم على نفسها للمرة الأولى . فقال الشيخ فى ذهول :

ــ أأنت لقيطة ؟ لشد ما ظلمك الناس !

ــ وأبى وأمى أول من ظلمونى !

ــ فلا تظلمى نفسك ، فأنت غير التى تعرفين .

ابتسمى للحياة واضحكى للوجود ، وادخلى الى قلبك فانزعى منه جذور التشاؤم ، وارسمى الدنيا راقصة يرقص حولك كل كائن .

انشقى النسيم العليل ودعى الجو الخانق ، واسمعى اللحن الجميل وسدى عن النادبات المسامع .

لم يكن لك حق فى الحياة حين كنت على الشاطىء الآخر ، وأنت اليوم على شاطىء الأحياء ، فلك ما لهم وان عبرت على زورق مسروق . ونحن لا يهمنا المعبر ، ولكن يهمنا العابر .

أنت حلقة أولى فى سلسلة النسب ، فكونى حلقة من ذهب ومن يقل لك أين نسبك ؟ قولى له : وأين خلقك ؟ فان تساويتما فى الخلق لم يفضلك بالنسب ... أنت لم تلدى نفسك ولم يلد هو نفسه .

وظلام النفس يا بنيتى أرهب أنواع الظلام ، فلا تعيشى فى وحدة ووحشة ، ولا تعرضى عن جمال الدنيا ؛ فمن حق كل حى أن يتمتع به .

وانك ان فعلت دبيت الى الشيخوخة وأنت فى ريعان الشباب . اتهبى النعيم المباح ، وانسجى حول نفسك خيوطا من

السعادة ولو واهية موهومة ، فان لم تسعد نفسك عز عليك المسعد .

استبشرى بالصباح وغردى مع المساء ، وافرضى على الناس وجودك ، فما أنت مذنبة ولا جانية !

أنت روح طاهر فى اهاب طاهر !

أنت ساعة توبة أعقبت ساعة خطيئة !

أنت لفظة استغفار رددها لسان عثر فقبل الله وغفر !

أنت دمعة ندم ملؤها حرارة وفيضها طهارة !

أنت يا بنيتى ... أنت لا تدرين من أنت ! .

أنت هفوة عابد أو عثرة زاهد ما حسبت فى السيئات !

هذا هو أنت يا ليلى فلا تحزنى . وهذا هو دستور مملكة الفاضلين فان رأيت أحدا من الناس يجرى عليك غير هذا القانون فاعلمى أنه غير فاضل ، واستغفرى له الله !

ـ أبى ... أحقا أنا كذلك ؟ ما كان أحوجنا جميعا ونحن فى ملجأ ج ... أن نسمع من فم هناك مثل هذا الحديث !

كان لى صاحبات تفرقت بهن المذاهب وكلهن أشد منى استيئاسا وقنوطا . وزعونا على البلدان كما توزع اللعنات ، وتعاون على أمزنا الناس كما يتعاونون على المصائب ، فحسبنا أننا عليهم محسوبات . ولكنك قلت لى : ان من حقنا أن نعيش ... ربما كان فيهن من عشن ، ولكن هل أستطيع أنا أن أعيش ؟

ثم انفلتت خارجة ووجهها الى الشيخ فى سريره ، ولم تمهله

حتى يقول لها شيئا . ولكن نور الايمان وضوء اليقين المشرقين على جبينه نفذا الى نفسها دون أن تشعر .

والتقت بها أحلام بعد أن خرجت :

ــ أين أنت يا ليلى ؟ انني أفتش عنك منذ زمن طويل ولا أعلم أنك فى حجرة الشيخ .

ما لى أراك كثيرة التردد طويلة المكث هنــاك ؟ لعلك تتلقين درسا فى الدين أو فى الفلسفة كل يوم ! ولو كان فى ديننا رهبانية لخفت عليك أن تلبسى المسوح وتسكنى الأديار ! ما لك تألفين الشيخوخة وتعشقين الفنــاء كأنك فى أخريات العمر ! ارحمى الشباب الغض من ثلوج الشيخوخة ، وأرسلى عليه من حرارة الحياة ما ينضر عوده وما يذكى عبيره ... ليت شعرى فيم كنتما تتحدثان ؟

فقالت بلهجة مرحة :

ــ تحدثنا طويلا عن الحب ، لقد سألته عنه لأنه شيء ماعرفته. أتدرين ماذا قال لى يا أحــلام ؟ قال : ما الحب يا ليلى ؟ أترين فيه شيئا شائنا أو غير طبيعى ؟ انه تفتح النفس للنفس ومناجاة القلب للقلب ... (وأعادت عليها ما سبق أن قالته أحــلام عن الحب) .

قالت أحلام :

ــ ما زلت تسخرين . لا تسخرى منى وأنا حزينــة ، فأنا أحوج الناس الى رثائك يا ليلى !

ـ طلبت منى يسيرا ... استمعى الى فأنا أجيد توقيع النغمات الباكية .

وتركتها جالسة على كرسى ووقفت على آخر ، ثم أخذت تقول :

ـ لم لا أرثيك يا أحلام وأنت حبيبة القلب وشقيقة الروح ؟ رحمك الله يا أختاه ! ماذا عراك وقد كنت بالأمس ملء دنياك ؟ ماأشد غدر الزمان الذى حطم كأسا كانت فتنة الأنظار والأفواه ! رحمك الله يا أختاه !

ثم نزلت بعد أن بهرها الضحك ، وضحكت أحلام من ضحكها ، فلما أفاقت قالت :

ـ وأيضا ما زلت تسخرين !

ـ أنت تسخرين منى وأنا أسخر منك ، وهناك ثالثة تسخر من اثنتينا ، والزمن يسخر منا جميعا ... والعيش كله سخر وسخف .

ـ اذا تعالى نتعاون على الزمن ونسخر منه ، واستمعى الى ما أريد أن أقول ...

ولكن مالى أرى فيك مرحا ما رأيته من قبل ؟ لعل نور سعادة لاح فى أفق حياتك ، أو لعل لهذا الشيخ ولدا ستزفين اليه !

ـ لا . لا . ما أصبت الهدف وان حام سهمك حوله . لقد خطبنى ابن جارتنا العجوز وسأزف اليه ان شاء الله فى عالم الغيب . وسيخترق شوارع القاهرة موكب من الأرواح يردد أناشيد الأبدية . وسيكون ثوب زفافى من أشعة الشمس واكليل

عرسى من نجوم السماء . غير أنى استمهلته حتى أعلم : أأبى فى الأحياء أم فى الأموات ، ليذهب اليه ويطلب يدى منه .

وهنا يرتفع عويل امرأة فى فناء المستشفى لأن ابنها قد مات . فتقول أحلام :

ــ لعل هذا من أناشيد الأبدية !

فتقول ليلى :

ــ وسيخترق شوارع القاهرة موكب الأرواح ، ترى أهذا عرسى يا أحلام أم مأتمك ؟ لا تنسى أننى كنت أرثيك منذ قليل .

ــ حقا ان العيش سخر وسخف كما تقولين . وقد جاوزنا الآن حد هذا وذاك ! ألا تريدين أن تستمعى لما أقول يا ليلى ! اننى متألمة حزينة .

ان أبى وأمى يحولان بينى وبين سعادتى ...

ــ كما فعل أبواى من قبل .

ــ ليس بالضبط ، فان أبويك لم يقصدا الى اشقائك بل أشقياك بدون قصد . أرجوك ألا تقاطعينى حتى لا أنسى الكلام فأنا مبلبلة الفكر مضطربة الخاطر ولم أنم ليلة البارحة ... ان أبى وأمى يحولان بينى وبين سعادتى . وقد قلت لك اننى أحب ابن عمى وهو يحبنى كما يحب نفسه وتسود بيننا جميعا فكرة أنه سيتزوجنى . وقد قلت لك يا ليلى انه سيىء الحظ على وفرة ذكائه . وكلما هيأ المال الذى يكفل لى وله أن يضمنا بيت سعيد . نزلت به نازلة أو اجتاحته جائحة ..

ولقد شكوت اليه استطالة الزمان على أمرنا ، ورجوته أن

يعجل ، فوقف أبواى فى سبيله ؛ لأنه لا يملك مالاً كافيا يرضى جشع الآباء والأمهات ... كأننا فى نظرهم سلعا تباع وتشترى لا زوجان تجمع بينهما كلمة الله .

وقد كنت ادخرت من مرتبى شيئا بعد شيء ، فاستنفده أبى بخطاباته وشكواه شيئا بعد شيء ، وأصبح الحبيبان وقد أعدما من المال وأصبح المال الصلة التى تجمع الحبيبين ــ فى نظر أبوى بالطبع ــ لذلك ثار ابن عمى فى خطاب أرسل به الى وقال : انه عيى بالأمر وأصبح يفكر أن يدوس قلبه تحت قدميه ويعرض عنى الى فتاة أخرى تكون موفورة المال ، فيصلح بها ما فسد من أمره . وأنا بينه وبينهما لقى معذب .

ليتنا نتبادل الموقف يا ليلى فيكون لى حبيب وليس لى أب وأم ، ويكون لك أب وأم وليس لك حبيب .

فقالت ليلى :

ــ أنا لا أصلح للبدل فما لى أب ولا أم ولا حبيب الا اذا كنت تعتبرين الشيخ الذى هناك ، أو الدكتور لك ... أو ابن جارتنا العجوز حبيبا . فاختارى من ثلاثتهم من تشائين . انك تستشيرين فى أمور الحياة فتاة على حواشى الحياة ، وتستفتين فى شئون القلب فتاة بمعطلة القلب لولا خفقاته ما أحست به . وبعد ، فأنا أصلح للبدل من هذه الناحية : هاتى قلبك وخذى قلبى وأنا أضمن لك أنك ستبغضين ابن عمك أول ما تبغضين ، ثم تبغضين بعده جميع الرجال .

لا تظنى يا أحلام أننى أسخر منك ... أنا أسخر من نفسى لأننى خلقت كهيئة الناس ولست من الناس ، وعلى صورة الموجود ولست بموجود ، وقد عرف الناس سرى فما عذرونى ولا غفروا لى ، مع أن الخطيئة قد سبقت الغفران، ولولا الخطيئة ما عرف ، ولا تواضع على معناه المتخاطبون .

ليتنى كنت مذنبة حرمت العفو ، اذا ما كنت آسى ولا آسف ؛ لأن العافين متفضلون وما على المحسنين من سبيل . لكنى كسبابة النادم عضوا على حتى دميت وأنا ما جنيت .

أتعرفين ذلك الشيخ الذى أتردد عليه وأطيل المكث عنده ؟ انه السيد الأمين العالم الزاهد ، الورع التقى . هو أول رجل سمعت منه كلمة رثاء ، وأرسل فى طريقى شعاعا من رجاء . اقد قال لى يجب أن تعيشى !

وحقا يجب أن أعيش ؛ لأننى أسلك طريق الحياة وهو معتم دامس يستوى فيه المضى والرجوع . على أن المضى واجب الى أن يقف الموت مسيرى . ومع المضى أمل فى السماء ، فقد ترسل لى ومضة أبصر بها مواطىء أقدامى وتبين بها الأشباح أمامى . أما الرجوع فانه محرم وليس من حقى معه أن أرجو السماء ، فتتصل ظلمة الطريق بظلمة القبر ، فأعيش فى ظلام وأموت فى ظلام .

لذلك آمنت يا أحلام بما قال الشيخ !

آمنت بأنه يجب أن أعيش .

يجب أن أعيش لأشغل مكان نغمة فى لحن الوجود مطربة أو حزينة ، ولأحتل مكان زهرة فى باقة . وضعت على جبين عروس أو على أحجار قبر !

يجب أن أعيش سـعيدة كنت أم شقية ، لأؤدى المهمة التى فرضها على الله !



وفارقها أبوها الروحى ...

٦

يعز على الانسان أن يتخلى عن مألوفه ويتخلى عنه مألوفه ، اتصل بالبدن أو اتصل بالروح ، وكان نافعا أو غير نافع .

فترانا نبكى على الهين بدموع نذرفها على الجليل ، وترانا نركن الى الحاضر وان كان فيما وراءه سعة وسعادة . ونرجع الى أيام لحيناها وتمنينا زوالها ، فنحمد صبحها ومساءها وبساطة عيشها وهدوء البال فيها .

وان كنا فى الشباب حننا الى الطفولة ، وان سلخنا الشباب عدنا فحننا اليه ، ولو كان فى مراحل العمر مرحلة بعد المشيب لحننا فيها الى المشيب .

وهكذا نرى حياتنا سلسلة من الحنين متصلة الحلقات ، وان دل الحنين على شىء فانما يدل على الألفة ، كما تدل الخضرة على الماء والدخان على النار .

وأشـــد مألوف تعلقا بالنفس ما ألفته النفس أول شيء . من أجل هذا لا ينسى صديق الصبا ، ولا يسلى أول حبيب . وعلى قدر ازدحام القلب بالمألوف أو عـــدم ازدحامه ، يكون قبوله للألفــة وعدم قبوله ، ويكون حنينه أو عدم حنينه : فكثير الأصدقاء قليل الوفاء ، وكثير الحب لا شك أنه محترف .

ولو وضعنا قلب ليلى تحت ضوء هذا الشعاع لعرفنا مقدار أســاها يوم تم برء السيد الأمين وأعد للخروج العــدة . فانها أحست ولا شك للمرة الأولى بوحشة تتمشى فى أنسها فتقص من أطرافه ، واختلج قلبها اختلاجته يوم ودعت الأتراب وهى خارجة من الملجأ منذ ثلاث ســنوات . فأدركت أنها ألفت فى الدنيا مكانا ورجلا ... ألفت ملجأ ج ... وألفت السيد الأمين .

ووقفت على باب المستشفى عربة كراء شد فيها حصانان ، وأشرف ســائقها من على كرسيه العــالى ليستعجل الراكب . فصعد اليها شيخ وقور بطأت خطاه آثار العلة وآثار السنين ، وداعب النسيم ثوبا أبيض وقفت صاحبته تودع الراكب، وكان ثوب ليلى . وتبادل من فى العربة تحية عاجلة سمع بعدها صوت الشيخ وهو يقول :

ــ أنا بانتظار زيارتك يا ليلى .

ثم درجت العجـلات على أديم الشــارع ، وسمعت فرقعة السوط ، وبقيت العينان الخضراوان تتبعان العربة فى شخوص لا يكاد يطــرف حتى واراها منعــرج الشــارع ، ثم انتفضت صاحبتهما وأفاقت من ذهول، وأدارت وجهها الى بناء المستشفى

وولجت البـاب وأجازت الحديقة وقلبها يقول : اليوم ودعتنى روائح الأبوة وزايلتنى كأنها خيـال ! وصعدت السلم ودخلت حجرته ذات السرير الواحد ، فلم تر فيها مصدر الشعاع القوى الذى نفذ الى قلبها الأصم ، وأضاء ظلمة نفسها الحزينة .

ومرت زميلتها أحلام .

ــ تعالى حدثينى عن الحب يا أختاه ، فاننى ألفت التحدث عنه .

وابتسمت .

ــ أساخرة أنت فى هذه المرة أم أنت غير ساخرة ؟

ــ ألسنا متفقتين على أن العيش كله سخر وسخف ... لقد نسيت أول مادة من لائحتنا الداخلية .. سأعفيك من الكلام .. أنا ذاهبـة لأشرف على نقل مريض الى الحجـرة ذات السرير الواحد ... ترى من ذا الذى سيشغل مضـجع هذا العـالم الجليل ؟ ربما كان من أجهل الجاهلين كالذى يرث عن أبيه مكتبة لا يفقه فيها شيئا . ولكن ما لنا وللنـاس ! كل ما هنالك انى أحسست بوحشة من بعد هذا الرجل !

ــ أهنيك يا ليلى ... أهنيك يا أختاه ... هذه بشائر الحب تداعب قلبك الخالى ، وهذا أول شىء من نبعه الذى سيتفجر . ترى من ذلك المحظوظ الذى تهيىء له الليالى هذا الكنز وهذه الثروة وتلك السعادة ، لقد بدأت تألفين الناس .

ــ كان من حقك أن تقولى : لقد بدأ الناس يألفونك ... طالما قرعت عليهم الأبواب فلم أحظ منهم بجواب . الا أننى كنت أريد أن أدخل شريفة وأخرج شريفة ، والا طابت الوحدة ولذ الانفراد .

أنا بستان من غير حارس . وشهد لا يحوطه نحل !

أنا وردة ليس يحميها شوك ... أنا شاة غفل عنها الراعى فتخلفت عن القطيع والمرج تعوى به الذئاب ، والذئب يفتك جائعا وغير جائع ؟

أنا فى ذعر من نفسى ، وهلع ممن حولى ، لا أنا مؤمنة الداخل ولا الخارج ، كدولة انقسمت على نفسها وأحاط بها الأعداء !

أنا لا أملك ما يسمونه جمالا ، وهو نار مشبوبة يتهافت عليها الفراش ، ولكن الفراش لا يحترق !

أنا نخلة منفردة فى فضاء فسيح ، لا يقف شىء بينها وبين الريح !

أنا المشير والمشار اليه ، والمقترح والموافق ، والسائل والمسئول ، والكافل والمكفول !

أنا التى خلقت وحدى وكأننى حواء هذا الزمن !

اغفرى لى يا أختاه خوفى من الناس واطلبى لى عناية الله ، فان حملى ثقيل وساقى ضعيفتان ، وأنا أخشى أن أزل . ان المجتمع واقف لى بالمرصاد فان أحسنت ، قالوا : تكفر . وان أسأت ، قالوا : معدنها ... خارجة من الربح داخلة فى الخسارة . ألا بئست هذه التجارة !

لو كنت رجلا وخضت معمعان القتال لكنت من أشجع الشجعان ؛ لأننى أريد أن أموت . ولو وقع لى هذا أيضا ما مت ؛ لأن المرجو دائما متخلف . ولو اجتمعت جراح الذين

يئنون من حولنا فى جسد مثلى ما قتلتها ؛ لآن النفيس هو الذى يفقد . فاغفرى يا أختاه خوفى من الناس واطلبى لى عناية الله ، فان حملى ثقيل وساقى ضعيفتان ، وأنا أخشى أن أزل !

ــ ليت شعرى كيف يطيق شبابك الغرير كل هذا يا ليلى ؟ انك تهونين على بلائى وتستغفرين لأبوى من ذنبهما ... خففى عنك يا أختاه وسأطلب لك عناية الله !

وافترقت الزميلتان والأولى مثقلة بحبها والأخرى مثقلة بعبئها .

ثم مضت الأيام فى سيرها بطيئة فى نظر ليلى ، وجاءت عطلة الأسبوع وكانت فى حجرتها تقلب أمر زيارتها للشيخ ظهرا لبطن . ترى أتذهب ؟ لعل فى بيته مثل امرأة الدكتور ك ... فيهاجم جمالها البائس مرة أخرى لكنه رجل طيب القلب ولابد أن امرأته كذلك . ان قلبها مرتاح لأن تذهب ، وحديث القلب قلما يكذب .

وارتدت أكثر ملابسها احتشاما ، وأقلها الترام فى أصيل ذلك اليوم الى هناك ، ووقفت على باب مسكنه ثم ترددت مرة أخرى ، لكن يدها سبقتها فقرعت الجرس ، وانفتح الباب وظهرت به خادم عجوز . قالت ليلى :

ــ لعله بيت السيد الأمين ! قولى له : ليلى .

وحملقت فيها الخادم وتركتها ، ودخلت ثم عادت تحمل الاذن :

ــ تفضلى يا سيدتى ... هذه حجرة الانتظار .

ولم يطل انتظارها الا بقدر ما يتأهب صاحب البيت لملاقاة ضيفه ، ثم دخل عليها فى لبسة المتفضل . وقد ألقى على كتفيه عباءة ســوداء زادت فى اشراق وجهه المضىء . وحياها تحية الأب لابنته وجلس على كرسى تجــاهها . وتكررت التحية وتكرر الرد ، وليلى مطرقة خجلة لا تجد ما تصل به الحديث ، وتمنت فى نفسها أن لم تكن جاءت ، ولــكن صــدر المضيف المنبسط الرحيب وسعها وأخرجها من حيرتها حين قال لهــا وهو باسم :

ــ لم أسارع اليك كما كان ينبغى لأننى كنت فى المكتبة ، كنت مستغرقا فى القراءة ولم أقم حتى وصلت الى مكان يحسن عنده الوقوف . وهكذا تجدين أمثالى من الناس الذين يسميهم الناس علماء ــ لا هم لهم الا القراءة . وأنا على الأخص جعلت الكتب جدى ولهوى وعملى وتسليتى وأنا مثلك تماما يا ليلى محتاج الى التسلية غير أن تسليتك من نوع آخر .

ــ بلا شك ، فأنا أقطع أوقات فراغى فى الخياطة والتطريز أو فى الفكر والتأمل . على أنها أوقات محدودة لا تكاد تريحنى من عناء عملى اليومى ، فنحن هناك جميعا لسنا نخلو من أحد سوطين : سوط الغيرة والاخلاص ، أو سوط الدكتور ك... وكبيرة الممرضات .

ــ الا أنك ممن ســلط عليهن السوط الأول . لست أنسى ما حييت ما بذلته فى سبيلى من عناية وسهر ... انك فتــاة

عزيزة المثال ، وأنا أكن لك كل مودة واحترام .

وصافحت سمعها أول كلمة من نوعها : انه يحترمها .. فكادت تبكى لأنها فوجئت بما حرمته ولا تزال تشتهيه ، أو لأنه يوأها مكانا رأته أرفع مما تستحق . فقالت له :

ــ دعنى أنا أشكرك يا أبى فأنت الذى بعثت نفسى . وأنا ما قدمت اليك ما يعد جميلا انما هو عمل آخذ عليه أجرا . ولكم وددت فى نفسى أن أنزل عن أجرى للمستشفى عن الأيام التى أقمتها هناك ؛ لأكون لك خادمة مخلصة غير مأجورة ، ولكنى أحسست أن هذا لا يرضيك فرجعت ، انك وهبتنى حنانا بخلت به على الطبيعة ! دمت وبقيت !

ــ أنت تملكين نفسا أعلى مما يظن الناس !

ودخلت الخادم بالقهوة ، وسادتهما بعد ذلك فترة صمت كنت لا تسمع فيها ــ لو كنت ثالثهما ــ الا صوت الرشفات الهادئة . ولا ترى الا تقلب عينى ليلى الواسعتين فى جدر الغرفة بعد أن خفت عنها قليلا وطأة الخجل . وعن لها أن تكون بطلة الحديث فى هذه المرة فقالت :

ــ ان حيكم هادىء يا سيدى الأستاذ ... وجميل ... وبيتكم أيضا هادىء وجميل !

ــ أما هدوء الحى : فلأنه من الأحياء الممتازة . وأما هدوء البيت : فلأنه ليس فيه ما يدعو الى الجلبة .

فقالت فى دهشة وذهول :

ــ أليس لك أولاد صغار يا سيدى ؟ !

ــ ولا كبار ... حمدا لله !

وضحك البيت من تجمع الأضداد .

فوضعت فنجانها من يدها فجأة كأنما خفت الى استيضاح تلك المشكلة العارضة قبل أن تغيب عن ذهنها .

ــ سيدى : أنا مؤمنة بالله وقضائه وقدره ؛ لأننى احدى أعاجيب القضاء . غير أن شيئا وثب فى نفسى مما سمعت منك الآن ! أنت تنشد الأولاد وأنا أنشد الآباء ، فضاع نشدانى وضاع نشدانك .. مالى أرى بعض نواحى الخليقة كاملة ليس يعتورها نقص ، مع أن الله لم يكتب لها الخلود ــ وأرانا يا أبى فى نقص من وجودنا وأمانينا !

اننى حين أتكىء على حافة نافذتى وأسلى الوحدة بالفكر ، وأسرح الطرف فى مملكة السماء . وأطلق العقل فى فضاء الأثير ــ أراها كاملة الوجود محبوكة النــواحى : هــذه هى الشمس ما تخلفت عن شروقها لحظة ولا عوقها فى خدرها معوق وهى فانية غير أزلية !

وهذه هى النجوم والكواكب تحتل مكانا لا يكاد يتغير ، وتدور فى مدار لا تخرج عنه ولا تضل فيه . وهى أيضا فانية وغير أزلية !

وهذا هو البحر خلق مرا فما احلولى ، والنهر خلق حلوا فما مر ، والعندليب مغرد وما نعق ، والغراب ناعق وما غرد وكل هؤلاء فان غير أزلى !

أما الانسان فهو مضطرب المقياس خاضع للتبدل ، أدخل

شيء تحت حكم القضاء كأنما خلق القضاء له وحده : فهذا مؤمل محروم ، وذلك يعطى وما أمل . وهذا ساع مقل ، وذلك قاعد مكثر . وهذا يمرض ولا يموت ، وذلك يموت من غير مرض ... ما كان أجدرنا ألا نتواضع على ما سميناه : « سببا ومسببا » ما دام المسبب يتخلف كثيرا عن سببه !

ونظرت اليه بعينين متعطشتين الى المعرفة .

ــ لا يا بنيتي ... أحبي الله حبا خالصا تبن لك حكمة أفعاله. وان لم تبن اطمأنت الى فعله نفسك . واعلمي أن قانون القضاء متسلط على الأرض والسماء ، فقضى لبعض الخليقة أن يكون أكثر نظاما وأطول دواما من بعضها الآخر . وان كنت تريدين أن توزعي الأبناء على البيوت فلا يكون هذا مقفرا وهذا آهلا ، فوزعي على الصحارى أشجار الغابات !

ألا ترين بعد هذا أن القضاء جرى على الأرض بمثل ما جرى على الانسان ؟ غير أن الحكمة بانت لنا في الأخرى ولم تبن لنا في الأولى ، وان كانت النظرة العابرة والفكرة العاثرة تقول : ماذا لو أن أرض الصحراء غطيت ببعض هذا الشجر فنجت ونجا ساكنوها من حرقة الشمس ؟ وماذا لو أن شجر الغابة وزع بعضه على هذه الصحراء فنجت ونجا ساكنوها من الازدحام والالتواء ؟

أحبي الله حبا خالصا تبن لك حكمة أفعاله ، وان لم تبن اطمأنت الى فعله نفسك . واعلمي أن الله لم يخلق الشر الا لأنه ضرورة ، وعطلي ابليس يوما عن عمله ثم انظري كيف يكون

النظام والوجود ! كأنك لا تستطيعين يا بنيتى أن تعترفى بأن الحياة منظمة الا اذا رأيتها « شكلا من الأشكال الهندسية » أو زخرفا من الزخارف التى نرسمها على الورق وننسق على هيئتها الشجر ! انما الدنيا كآلة من الآلات تراها العين فى جملتها غير منتظمة مع أن نظامها فى اضطرابها ، واتساقها فى نشوزها .

ففرى بنفسك من وحشة الشك الى أنس اليقين ، ولاتتسامى الى ما تسامى عن العقل .

وردد قارىء فى المذياع فى مكان من بيت الشيخ بصوت مستعذب النبرة : « يهب لمن يشاء اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ، ويجعل من يشاء عقيما » . فالتقت عيناهما فى تفاهم وصمت ، لأن السماء تدخلت فى الوقت المناسب !

ثم دخلت عليهما سيدة محتشمة ضربت بخمارها على جيبها كأنها قد فرغت من صلاة . فيها جمال وعليها قداسة . يحتفظ جسمها بنعومة الشباب لأنه لم يرضعه طفل . ولم تكن تلك السيدة سوى زوج السيد الأمين . فنهضت ليلى لتحيتها ، وغمرتها ربة البيت بمثل ما غمرها به ربه من تعطف وتودد وترحاب ، فأنست نفسها بالبشر وخفت خطا الزمن فلم تشعر بأنها أثقلت أو أطالت . وتفرع بهم الحديث وتناول شئونا شتى حتى حان موعد العشاء ، فتشبثا بها أن تكون معهما حتى قاموا جميعا اليه .

كان حول المـائدة ثلاثة كراسي تباعدت بينها المسـافة . جلست ليلى على أحدها في تجاه السيدة وجنبها الى الشيخ . وبدأوا يطعمون . فضحكت المائدة أيضا من تجمع الأضداد . لاشك أنها كانت تقول في نفسها : ليتهما كانا أبوي ! اذاً لكنت سعيدة . ولا شك أنهما كانا يقولان في نفسيهما : ليتها كانت ابنتنا ! اذاً لكنا سعيدين . ولا شك أن كلا منهم ردد بعد ذلك في نفســه ما سمعه من القارئ منذ فترة قصيرة ، فانطوت النفوس على ما كمن فيها .

وفرغوا من الطعام ولم يطل بهم السمر ، حتى اسـتأذنت ليلى ، فتركها الشيخ وزوجه واستراثهما حتى يعود ، ثم ألقى بين يدي ليـلى بكتاب وقال لها : اجعلي من هذا تسلية لك عندما تملين التطريز ، فقد اشتريته أيام شبابي ؛ وقراءته نافعة للشباب .

فقبلته باسمة شاكرة ، ثم ودعت الى الباب مكرمة عزيزة .



تقرأ وتفكر ! . . .

٧

لذت لها الوحدة وغمرها السكون حين جلست الى منضدتها تقلب صفحات الكتاب الجديد ... انه أول شيء من نوعه وقع لها أن قرأته : مذكرات فتاة أحبت ... ما كان أجدر أحلام بأن تقرأ مثل هذا الكتاب لعلها ترى في دموع سطوره وتسمع في أنات كلماته ما يخفف غلواء قلبها المتهافت ويطفيء نار غرامها المحتدم ، ويبعث فيها شيئا من التحفظ والتحجز ! لكنه وقع بين يديها هي فلا بد أن تقرأه .

وداعب النوم جفنها بعد تعب طويل ، فتناولت موقد « الكحول » من تحت المنضدة ووضعت عليه « الشاى » وأخذت تقلب الصفحات :

١٨ يناير

لم أكن أعرف الحب الا على أفواه العاشقين ، فما ذقت منه

حلاوة ولا مرارة . ولوج لى به ذلك الفتى الوسـيم ففررت منه . لكنه عاد فلوح لى به من جديد ...

١٥ مارس

ترى ماذا يعنينى من أمره ؟ أنا أشعر أنه تخلف عن ميعاده يوم لا يقابلنى فى المكان الذى تتلاقى فيه وجها لوجه ، وأنا ذاهبة الى مدرستى وهو ذاهب الى عمله ... كنا نتلاقى فى مكان لايكاد يتغير ، فيلتفت يمنة ويسرة ويلقى الى بكلمة ناعمة تؤيدها عيناه الصادقتان ...

٢٠ مارس

ترى أستأخر اليوم أم استقدم ؟ ولكن ماذا يعنينى من أمره ؟

٢٨ مارس

انه تتبعنى حتى عرف بيتى . وهو لا يزال يمر فى الشـارع الذى نسكنه أو يجلس هنالك فى مقهى قريب ، وهو ليس من سكان حينا ، فلابد أنه مشغول . ولكن ماذا يعنينى من أمره ؟

اول ابريل

أشفقت عليه فرددته ردا جميلا ، فتزلف وتذلل فقبلت زلفاه ورحمت ذله : فطلب الى أن يجلس معى ليشرح ما يلاقى فى سبيلى ، ولى الأمر بعد ذلك فى أمره ، ولم أدر كيف جلست اليه ؟ قمت بعد أول لقاء وأنا غير محبة ولا خالية ، ولكن رتاج قلبى لم يعد محكما كما كان ، فسهل على الطارق أن يفتح له .

١٠ ابريل

سار الحديث بينى وبينه سيرته بين أخ وأخت حتى ألفت حديثه

ووثقت بطهره ، ولكنه طلب مني اليوم قبلة .. قبلة ! وفزعت.
ما هكذا تكون معاملة الناس ! لن نلتقى بعد اليوم ... انني أنست بحديثك وليس بيني وبينك أكثر من هذا ...

١٥ ابريل

قابلني واستغفرني فغفرت له ؛ لأنه كان برىء المطلب ساذج القلب ، وقد طلب مني ما يطلبه الأخ من أخته ... شيء فارغ من معاني الفجور ، عامر آهل بمعاني الحنان ، وليس يهمه رضاى بهذا ، ولا يؤلمه أنني رفضت ...

اول مايو

جاءت القبلة اليوم عرضا خاطفة حين هزني وهزه موقف غرامي ونحن في دار الخيالة ، ولم يكن من المستطاع ونحن بين الناس أن أزجره أو أن أعتب عليه حتى لا أنبه الغافل ، فسكت ... ولكن أوراق الورد تناثرت تباعا بعد أن سقطت أول ورقة ...

٧ يونيه

ما أعظم مكره وأشد دهاءه ! انه يخلق حولي جوا من القلق عليه حين يحدثني أنه يوحي اليه أنه سيموت دون أن يسمح الزمن بجمع الشمل واتصال الحبل ، وهو لا يأبه بالموت ولا يحفل به اذا كان في ظل وجهي الجميل ...

٩ سبتمبر

هذا أول موعد أخلفه معي ، فياليت شعري ما الذي عوقه ؟ أهو مريض ؟ أم أصابه في الطريق مكروه ؟ أم شغله عن حبيبه

حبيب ؟ لا هذا ولا ذاك بل هو خير ويمن ... اننى أخاف عليه !

١٥ سبتمبر

لم يتـأخر فى هـذه المرة وانما جاء متهللا ... ما خدعنى ولا خدعتنى نفسى ، انه يحبنى فلابد أن أحبه ...

١٨ يناير

ولد حبنا منذ عام طوفت فيه الملائـكة دائما حول مجلسنا ولكن مجلسنا الليلة ثلثنا فيه شيطان !

وبكيت وبكى ؛ لأنه شىء تعجلناه قبل أوانه ، ثم أقلعنا ... ماذا فى هذا ما دامت الثقة بيننا محبوكة النواحى والأطراف ؟ انه لن يغشنى بعد أن أسلمت اليه أغلى جوهرة ...

٢٠ يناير

لهف نفسى ! ما بال العجلة تدور عكس ما كانت تدور ؟ انه يريد أن أتملقه وهو الذى كان يتملقنى ، وأن أسترضيه ان غضب وهو الذى كان يسترضينى ، وأصبح يأمرنى بعد أن كنت أقترح عليه ، ويباعد بين فترات اللقاء كأننى شىء ثقيل !

١١ مارس

كثر اخلافه وخلافه ، وامتلأ جوه بالغبار ... لقد أصبحت فى نظره امرأة ثانية !

١٣ ابريل

لى الله ، فاننى لم أعد أراه ... بل لا أرى أحدا من الناس أبدا ؛ لأننى عميت عن جميع الناس ...

لقد سافر الى حيث لا أعلم ، وسيعود أو لا يعود فأنا لا أعلم..

١٤ يوليه

ما كنت أحسب أننى سأخدع ! ولا كنت أظن أن تحت هذا الطلاء الجميل وجها قبيحا ! لقد كان ظلا لشيطان ! اننى أجرى الى غاية مجهولة !

ورشفت آخر ما بقى من فنجان الشاى التى طالما غفلت عنها ، ثم أخذت تستمع الى نفسها :

جنت على نفسها وحدها لأنها لم تلد أحدا ... ألا ليتها كانت أمى ! ثم بكت لأنها تمنت فى هذه الليلة أيضا أما لا يرضى بها انسان ... هى لا يهمها أن تكون أمها شريفة أو غير شريفة ، ولكن الذى يهمها أن تكون امرأة لا تلد .

ثم عادت فسخرت من اللاتى أحببن جميعا لأنهن مخدوعات . بعضهن خدمهن الحظ فظفرن بأزواج ، وبعضهن تخلى الحظ عنهن فظفرن بخيبة أو عار .

ثم عادت فسخرت من الحب نفسه : انه كالأمل : كم قوض من عرش ، وكم طوح برأس ، وكم وصم من عاقل بوصمة الغفلة ! وتقول عنه بعد ذلك : انه حلو ، لأننا نظرنا الى شطه المخضر وأغمضنا العين عن شطه الجديب .

وهكذا رسمت ليلى نوعا من الحياة خاليا من الحب فارغا من الأمل . فياليت شعرى كيف يكون ؟

وخفقت على السلم النعل البطيئة المتثاقلة ، فقالت ليلى : هى دائما تجىء فى الوقت المناسب حينما ينشب العراك بينى وبين نفسى كأنها كلمة الصلح ! وخفت ففتحت الباب .

ـ تفضلى يا أماه .
ـ مساء سعيد يا بنيتى .
ـ مساء سعيد يا أماه .
وجلستا على السرير الصغير متجاورتين .
قالت العجوز :
ـ كيف أنت يا فتاتى العزيزة ؟ لا تلومينى على تقصيرى فى زيارتك فان الشتاء عـدو العجائز . لقـد اصطلح على الأرق والسعال حتى تهدم جسمى ، ويقولون لى : اذهبى الى الطبيب وأنا لا أومن بالطب الذى قتل زوجى ... أنا أشرب أشياء كثيرة لكنها على نفعها لاتنفع ، لأن العود جف يا ليلى ولن يورق وان أتاه الربيع . ولا يزال جيرانى كذلك يلوموننى على تقصيرى فى زيارتهم ولا يحسبون لشيخوختى حسابا .

وهذه السيدة (وأشارت الى الشقة التى تطل على حجـرة ليلى) ما زالت تلح على فى المؤاخذة حتى ذهبت اليها البارحة أزورها .

لا أطيل عليك . ذهبت اليها فوجدتها حزينة مبتئسة ... لله ما يلاقى الآباء من الأبناء ! انهم دائما مصدر متاعب لهم لا تنفد . فقالت ليلى فى نفســها : ولله ما يلاقى الأبناء من الآباء فهم فى بعض الأحيان مصدر متاعب لهم لا تنفد .

ان ابنها الأكبر طالب فى الجامعة ، وهو فى سن العشرين مجتهد مثابر . لكنه عراه فى هذه الأيام شىء غريب : يدخلون عليه فى حجرة مكتبــه فيرونه ساهما واجما وهو معتل الصـحة قليل

المنام منصرف عن الطعام . وقد سألتنى أمه عما عساه جر عليه هذا البلاء فقلت لها : انها أعراض الحب .

نعم يابنيتى فان للحب أعراضا كأعراض أى داء تماما ، بل ان أعراضه واضحة لا يكاد يشركه فيها داء .

ولسنا نعلم من هذه الفتاة التى دفع بها القدر الى طريق ذلك الشاب البائس المسكين ، الذى كان سليم العمل طويل النوم خلى الفؤاد ؟

وتذكرت ليلى وجهه الذى كانت تصادفه فى بعض الأحيان حين تكون قريبة من النافذة . وتذكرت نظراته التى طالما أرسلها ففرت منها فقالت :

ــ عفا الله عن كل ذى بلوى وعافاه .

ــ أجل يا بنيتى فان البلاء موزع على الناس . والليالى حبالى يلدن كل عجيب . وليس أمر هذا الفتى الغر بأعجب من أمر صادفنى صبيحة أمس : ناديت بائعة لبن فاذا هى فتاة فى مثل سنك أو تزيد قليلا . ريفية صبيحة الوجه نظيفة ، فيها جمالٌ وفيها حياء . واشتريت منها ما أحتاجه . فقالت لى : لابد أن تشترى منى دائما ياأماه فاننى بنت حيكم. فعجبت وقلت : أنت يا بنيتى جيزية المظهر ، فكيف نشأت فى حينا ؟ فعلمت منها بعد ذلك أن أباها وأمها كانا ساكنين بالقرب منا ، ولما ماتا كفلها عمها وهو أحد فقراء الفلاحين بالجيزة . وهى تهبط القاهرة كل صباح لتبيع ما يحملها من لبن ثم تعود . ولعلك تذكرين أننى حدثتك عن امرأة تدعى زينب ماتت من زمن طويل ، وكانت اشتغلت

مرضعة فى ملجأ ج ... بعد أن توفى عنها زوجها ! هذه الفتاة ابنة تلك المرأة .

فانتفضت ليلى انتفاضة خفيفة حين شعرت أن الدنيا تفضلت عليها بأخت لها من الرضاع وقالت :

ــ نعم لقد تذكرت ... أهذه ابنة تلك ؟ من العجيب أن تتجر كلتاهما فى اللبن ! دعيها يا أماه تأت الى فى الغدوات التى أكون فيها هنا ما دمت تقولين انها نظيفة ، فأنا أوثر دائما أن يكون اللبن فى افطارى .

ــ بغير شك ستجىء وستكرمينها يا ليلى .

وبدأت العجوز تتحامل على نفسها لتنهض بعد أن أدت مهمتها وتخففت من خبرين أثقلاها . وهى لا تدرى أن أحدهما أو كليهما لليلى شأن به ودخل فيه . وتبودلت تحية الوداع وأقفل الباب .

لم ينطفىء المصباح مع أن الوقت كان متأخرا ، ولم تأو ليلى الى فراشها على الرغم مما كان ينفثه الشتاء من برد لا يكاد يدفعه زجاج نافذتها المحطم الذى حل محله الورق . ولكنها عادت الى مجلسها الأول واستمعت الى نفسها مرة أخرى بعد أن ظهرت أختها :

ليست الحياة بالجدول الهادىء كما يراها بعض الأغرار أو قصار النظر ، انما هى خضم زاخر نفتش فيه عن صيدنا ولا نراه . نجرى وراءه بالشراع والمجداف وهو تحت قدمنا فنترك مكانه الى مكان بعيد ، ثم نهيب بالريح مرة أخرى ونجرى راجعين

بالشراع والمجداف حتى نعود ، فيروعنا أن صيدنا قد تحول ! فليت شعرى أيهما أجدى على الأحياء فيها : مصادفة أم كفاية ؟

وبعد ، فماذا أراد الشيخ بحملى على قراءة هذا الكتاب ؟ لا شك أنه رأى ما رأيت وأكثر مما رأيت ، رأى مجتمعا يعج بصنوف من الحب منها الكريم الذى عمر البيوت ، ومنها الدنس الذى عمر الملاجىء ، فخاف على أن تحل بى لعنة آبوى بعد أن حبب الى الحياة .

حياك الله أيها الشيخ ! لا تخف على شيئا ؛ فما أنا الا فى مقصورة الحياة أشهد منها الرواية فأبكى للمنظر المؤلم وأطرب للحن الجميل ، ولكننى لا أمثل ولا أغنى !

وجلجلت فى سكون الليل دقات ساعة قريبة عرفت منها ليلى أن الليل قد انتصف ، فأوت الى الفراش لتسبق الشمس الى النهوض .

٨

كان نومهـا هادئا ليلة البارحـة نهضت منه مشرقة النفس صاحية المزاج ، وما لبثت طويلا حتى طرق بابهـا طارق وكان معروفا لديها ... انها بائعة اللبن .

ــصباح سـعيد يا سيدتى ... ان صاحبة المنزل آمرتنى أن أصعد اليك فى كل صباح لتشترى منى . فكونى مطمئنـة الى سلامة ما أقدم اليك ونظافتـه ، فأنا لست من اللائى يخلطن أو يغششن .

ولم يكن المبيع شغل ليلى وانما كان شغلها البـائع ... لقد تفرست كل جارحة من جوارحها وتأملت كل شىء فيها ، وهمت أن تقبلها لولا أن يقال : انها مجنونة .

لقد رضع هذا الفم ثديا طاهرا رضعته ، وتأملت هذه العيون فى غرارة الطفولة وجها تأملته ، واستلقى هذا البدن الجميل فى حجر طالما رقدت فيه . لكنها لم تزد أن قدمت اليها الثمن قائلة

لها : مع السلامة . ومن يدرى ؟ لعلها كانت تقول بعدها : « يا أختاه » بصوت خافت كأنه مناجاة الضمير !

ولم يشهد أى صباح فى شهر كامل من هاتين الفتاتين أكثر من تحية لقاء وملء اناء وتقديم ثمن وتحية وداع . على أن القلب مفعم واللسان صامت . ثم جاء اليوم الذى تحدثنا فيه .

كان ذلك صباح يوم جمعة وقد تأخرت كوكب عن ميعادها ولم تمر على ليلى الا آخر الناس . وما فرغت من صعود سلمها وطرقت بابها حتى ألفتها ليلى متعبة لاهثة . فتحرك فى قلبها كنز حنان أودعته اياه أمهما المشتركة فقالت لها :

ــ لا ... ليس المهم أن آخذ اللبن ، انما المهم أن تستريحى . تعالى هنا فليس عندى أحد ، واجلسى حتى تثوب اليك القوة .

والتقت عينان سوداوان بعينين خضراوين لتسألا عن السبب . انه عطف كبير من فتاة خلقها عظيم !

ولم تلبث أن دخلت وجلست على الأرض فأجلستها ليلى على الكرسى .

ــ ان قلبك عطوف يا سيدتى فأنا متعبة حقا .

تصورى أننى أقوم دائما فى الهزيع الأخير من الليل لأجلب اللبن وأفرغه فى الآنية ، ثم أحمل انائى مع الفجر وأسير به الى أن أنزل المدينة حتى يصادف يقظتها نزولى . فاذا ما فرغت اعترضت عربة نقل أقتسم أجرها أنا وزميلاتى ، فتعود بنا الى مكان قريب من قرانا . ومع هذا ــ حمدا لله ــ فأنا سعيدة .

ماذا عسى أن يأخذ الأحياء من الدنيا ؟ انها اللقمة والخرقة .

وبعد ، فليس للغنى أو للفقير من الأرض الا مقدار ما يشغل ظهره ، فتتساوى الملكيات هنالك ، وتتساوى الرءوس والمقادير . وان حزنا فماذا يجدى علينا الحزن ؟ اذاً فلنمرح ... أنا أقوم لأحلب فأغنى ، ثم أسير فأنادى باللبن كأننى أغنى ، ثم أركب العربة فى عودتى أنا وزميلاتى فتتألف من جمعنا فرقة تغنى بأغانى قرانا . ولسنا يهمنا أن يطرب السامعون ما دمنا نحن طربات !

لا تسخرى منى فأنا أعلم أن كلامى لا يروقك . فيه جفاوة الريف وليس عليه صقلة المدنية ... معذرة وشكرا ، وقد استرحت وسأقوم .

ــ لا لا يا كوكب . ليست هذه بفترة كافية ، وأنا أظنك قد فرغت من التوزيع وليس ورائى أنا من عمل ، فخذى قسطا كافيا من الراحة فقد قلت لك : اننى وحدى ولن يزعجك أحد .

ــ ولماذا يعيش هذا الجمال وحده ؟ لو كنت فى الريف لحاطوا جمالك بالهراوات والبنادق ، لكن حياطة الجمال فى المدينة عرضه واظهاره . ولا شىء فى هذا يا سيدتى فلست مهاجمة ، وانما هو اختلاف مذاهب .

ــ وأنت بدورك جميلة فلماذا لم يحوطوا جمالك بالهراوى والبنادق ؟

قالت ضاحكة :

ــ ما يستحق جمالى كل هذا .

فقالت ليلى مداعبة :

ـ اذاً فبالهراوى وحدها لا بهما كلتيهما .

ـ لغيرك الجهل ؛ فما جمال الفقير بمصون ... اننا نبتذل الجمال والأغنياء يحوطون الدمامة . انه الرغيف أحفى القدم ولوح الوجه وأرق الناظر ! ومع هذا فقد قلت : اننى سعيدة . وان كنت شقية فلن يطول شقائى ؛ لأننى سأتزوج وسيحمل رجل عبئا حملته الأنوثة !

قالت ليلى فى حزن :

ـ ولا بد من رجل يحمل عبء الأنوثة !

ـ هذا ما تفتش عنه كل فتاة ، فمنهن من تجعل الخفر وسيلة اليه ، ومنهن من تتخذ التبجح اليه وسيلة . ولكن الأولى ظافرة على كل حال ، والأخرى ظافرة فى حالة واحدة .

ـ لقد رضعت الحكمة فى لبان زينب !

فبدا على كوكب دهشة وذهول .

ـ لا تراعى فأنا أعرف قصتك وأنت تعرفين مصدرها وهى قصة شريفة .

ـ آه ... لابد أنها صاحبة المنزل ... لا شىء فى هذا . اننى سأزف قريبا ان كان فى هذا ما يشين يا سيدتى . ولكن لماذا ؟ سأساعد زوجى ان احتاج الى ساعدى ؛ فهذا دستور القرية ، وليس علينا فيه من عار .

فتألمت ليلى لأنها أحست أنها آلمتها ، وان كان اسم أمها قد أفلت من فمها دون أن تحس لأنها أم مشتركة . ولكن ما كانت كوكب تعلم بهذا .

فقالت ليلى :

وأنا أعيش وحدى من أجل الرغيف ، وقد آحفى القدم ولوح الوجه وأرق الناظر ... الا أننى غير سعيدة .

ـ يا الهى ! قد كنا نظن أن الشقاء فى الكوخ وحده وأن وراء الزجاج اللامع والستائر المسدلة سعادة كثيرة ، فاذا فى المدينة أيضا أشقياء . ما كنت أظن أن النائم شقى والذى يسعى ليحمل اليه اللبن سعيد ! انها فى القلب ... انها فى الداخل ... ليست فى الفضاء ... فلنطلبها فى نفوسنا .

ائذنى لى يا سيدتى فى أن أنصرف فأنا أشعر أننى غير موفقة فى حديثى ، واغفرى لى ان كنت زللت ؛ فلم أزد على أننى بائعة لبن .

ولو كنت شاهدها بعد قليل وهى تكد حنجرتها غناء بين أترابها على ظهر العربة المكشوفة ، وتتخذ من اناء اللبن الفارغ دفا توقع عليه الغناء لأيقنت أنها تبالغ فيما تأتى به لتثبت لنفسها أنها سعيدة ، وأن ذكر الشقاء ومجالسة الأشقياء لم يمسا سعادتها من قريب أو بعيد .

ومضى الزمن وحث خطاه ولا يزال اناء اللبن فى حجرة ليلى يملأ كل يوم ، ولا يزال القلب مترعا واللسان صامتا والسر عند طرف واحد .

وهذه كوكب كأنها الكوكب . أفرغت اللبن وقالت فى مرح لمن ظنتها سيدتها :

سيدتى ... لابد أن أجلس اليوم عندك لأنك لن تريني بعد

اليوم ، أو على الأقل لن تريني الا اذا حكم الزمن واستصرخني قريني .

فوجمت ليلى وكادت عيناها تدمعان ، ولكنها تماسكت وتكلفت الابتسام ثم قالت :

ـ اذا ستزفين قريبا !

ـ بعد غد ... حنائي غدا ليلة الخميس ، وزفافي بعد غد ليلة الجمعة .

ـ يعز على ألا أراك بعد هذا !

ـ ما قالها لي أحد .

ـ لأنك لم تقولي لأحد (وكان في الحق أن تقول : لأنك لست أخت أحد سواي ، لكنه سر ضنت به) .

ـ لن أشترى من أحد لبنا بعد اليوم ؛ لأنني ألفته مقرونا بذلك الوجه .

ـ انه عطف كبير يا سيدتي .

وهمت بالانصراف .

ـ يحزنني ألا أراك .

وقبلتها قبلة وهي عند الباب . فقالت في خجلة ودهشة :

ـ ترى ما الذي ربط بيني وبينك هكذا ؟ انني يا سيدتي لست من أندادك .

ـ لا شيء ... لا شيء ... انه ... انه اللبن .

ولم تفهم صاحبتها ما تعني ، واختفى الى الأبد من أفقها نجم الأخوة الضعيفة ، وخلف وراءه حسرة قوية .

فما أعجب قلب الانسان وما أغمض سر الله فيه ! يربط بينه وبين الدنيا شخص واحد ، ويفصل بينه وبين الدنيا شخص واحد فان وجده وجدها وان فقده فقدها ؛ فهو لا يراها الا بوسيلة .

لم يخلق مضيئا بطبعه ، انما يستمد النور من غيره . حساس اذا سكن ، مصمت اذا خلا ، لا يزيد على أنه قبضة من لحم .

يصبح المرء أو يمسى فيرى الدنيا على غير ما كان يراها وهى هى لا شك لم تتغير ، غير أن انسانا واحدا بدلها فى ناظريه ، وكأين من أناس غابوا قبل ذلك اليوم فلم يبدلوا فيها شيئا ، لأن قلبه ما كان يراها بهم ولا كانوا هم وسيلته اليها .

ومن الغريب ألا يغيب شاغل القلب جملة واحدة ، انما يجر وراءه ذيولا نسميها الذكريات هى صفوة ما يعمله المحبوب من كل معجب مشتهى ، تكون شريطا متلاحق الصور لما مثله الأليفان على مسرح الماضى ، غير أن الابتسامة فيه دمعة ، والرقصة فيه صرعة ، كأن الرواية مثلت فى جنة ، وعرض شريطها فى جحيم !

٩

كن أربعـــا جمعتهن فى المستشفى حجرة حين هدأ الليـــل وهادنت الجراح النزلاء . التففن حول منضدة واتكأن عليها بمرافقهن ومالت بعض قلانسهن الى بعض حتى تدانت الرءوس . ولو أن مارا رآهن فى مجلسهن هذا ما شـــك فى أنهن يدبرن أمرا خطيرا .

وقالت احدى الجالسات بصوت خافت :

ــ لقد جئنا فى الزمان والمكان كما أمرت يا سيدتى الرئيسة فلعلك تكلفيننا خدمة نسد بها بعض فضلك الذى غمرت به ثلاثتنا منذ دخولنا المستشفى !

وبدا على الاثنتين الباقيتين اهتمام كبير ، وتلفتتا ثم قالتا :

ــ بلا شك .

وازداد ميل الرئيسة عليهن وبدأت تهمس :

ــ أتن واثقات من أنكن بنياتى . وأننى أضع مصالحكن فوق كل اعتبار ، فضلا على أننى بعيدة النظر أرى من الأمور ما لا ترين ولا يخفى على ما وراء الجدار . وانـنا جميعا فى هذا المستشفى مهددات بفتاة واحدة ، فهى تقف فى سبيل رقيكن ، وتستأثر بالفضل والعطف وحدها دون أن نعرف لذلك سببا .

وأتتن عالمات بأن الدكتور ك ... رجل طيب القلب ، يبعد عليه أن يغير فكرة كونها عن شخص الا اذا ثبت له بما لا يمارى فيه أن فكرته مبنية على أساس واه ضعيف .

أما الفتاة فهى ليلى اللقيطة ، التى أسرت بجمالها وبرقة أجادت تكلفها قلوب النزلاء ، وقلوب الأطباء . والدنيا يا بنياتى كفاح وجهاد ، وأنا من اللائى يؤمن بأن الغاية تسوغ الوسيلة . فعلينا أن نتعاون على اخلاء الطريق منها ، والا بقيت عقبة كئودا فى سبيلنا .

ومثل هذه الفتاة لن يقفل فى وجه جمالها باب ، فنحن لن نرتكب أمرا جسيما ، فان فى وسعها يوم تغادر هذا المستشفى أن تشغل مكانها فى مستشفى آخر ، أو فى أى مكان تشاء . أما بقاؤها ، فأتتن ترين : لها من الدكتور ك ... العطف والعلاوات ولها من النزلاء النفحات والهبات . وأغرب ما رأيته أنها فى هذه الأيام لبست ثوبا من الكبر لم أره عليها فى يوم مضى من أربع سنوات خلون ... ولم أطرح عليكن هذا الذى أقض مضجعى الا لثقتى بكن ، وأملى فى أن تمددن يد المعونة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الى أنفسكن قبل أن تمددنها الى . فليلي شبح مفزع وكابوس ثقيل .

قالت احداهن :

ــ هو ما تقولين يا سيدتى الرئيسة ، والأمر اليك ، فانظرى ماذا تأمرين . ونحن ظل لك وغمر لأياديك الحسان !

وحبكت أطراف الدسيسة ، وعرفت كل ممثلة دورها ، ولم يبق الا أن يرفع الستار ؛ ليرى من فى المستشفى قصة دبرت بليـــل .

كانت ليلى ولا شـــك نائمة فى سريرها ملكا طاهرا تطوف حولها أحلام لذيذة ، أو ربما كانت تنام بلا أحلام ، ولكنها لم تكن تدرى أن أمورا تجرى فى أمورها ، وأن نيـــات خبيثة سلطت على نيتها البيضاء ، وحركة ظالمة سرت فى سـكونها الراضى البرىء .

ومضى يوم ويوم وأصبح صباح ، فلبست ثوبها ، ورجلت شعرها ، وأخذت سمتها الى المستشفى ولم تدر أن الشـؤم كامن فيه ، وحيت فيمن حيت أولئك اللائى اجتمعن بالأمس ، وكن يبسمن كأنهن لم يدرن فى أمرها حديث سوء !

والتقت بها أحلام واستقبلتها باسمة :

ــ صباح جميل لتلك الطلعة وحظ سـعيد لذاك الجمال ! لقد أصبحت يا ليلى كزهرة طلها الندى ... حصنتك بالله من كل عين !

وضحكتا متصافحتين .

ثم مالت عليها أحلام تقبلها ، فقالت ليلى :

ــ لكأننا على سفر ... ما يلد سواد الليل كل هذه الوحشة يا أحلام !

فقالت :

ــ ما هكذا يكون جزاء القبلة ! أنت رزينة أكثر مما يجب ، ولن أقبلك ثانيا الا اذا طلبتها منى ، وان كنت غير راضية بها فرديها الى أكن شاكرة .

وعرضت صفحة خدها الأسمر فى خفة ورشاقة فقبلتها ليلى وهى تقول :

ــ اليك أعذب منها . قبلة وربحها .

ثم خفت كل منهما الى العمل .

وكأنما كان هذا الموقف بينهما وداعا قبل ساعة الوداع . وكثيرا ما يقف الناس من أحبابهم مواقف غريبة يفسرها الزمن بعد ذلك ، فيعزونها الى احساس القلب وصفاء النفس !

وحمى وطيس العمل ثم هدأ ساعة الغداء ، وأفرخت الفتنة فى تلك الفترة الوجيزة ، وتغدت ليلى فأكلت فى غدائها آخر رغيف لها هناك .

وطلبت الي الدكتور ك ... ولم يكن هذا شيئا غريبا عنها ، فأسرعت اليه ودخلت عليه ، لكنها ذعرت وكادت تتراجع حين رأته مربد الوجه مقطب الجبين . وحدثها قلبها أن هذا بسببها ، فوقفت وفتحت فيه عينيها الواسعتين كأنها تسأله ، فأشار اليها أن تجلس ، ثم أمر فأغلق الباب .

ــ لقد سمعت أمرا عظيما ...

وفتشت عن ريقها فلم تجده ؛ لأن الشبكة التى أدليت اليها فانتشلتها من بين الحيتان بدأت تتمزق ...

واستمر يقول :

ــ نعم انه أمر عظيم ... عزمت على أن أكتمه عنك لكننى آثرت أن أواجهك به .

انك تعرفين بلدى ...

انها قرية ... بالقرب من القاهرة .

ــ نعم يا سيدى الدكتور .

ــ وتعرفين أنك التقطت من مزارع هذه القرية ...

فقالت فى وله وحيرة :

ــ أعرف هــذا وذاك . ولكن ما الذى يربط بين هذين ؟ لا تمتنى موتا بطيئا يا ســيدى ، وعاجل الجرح بالمبضع فانى لا أحتمل !

فقال فى غضب :

ــ يا لك من فتاة رقيقة ! انكن دائما تسترن العيوب بكل ما ينطلى على الرجال من زور وبهتان . (وحضرته شهادة زوجه فيها لأن الوقت كان مناسبا) . رفضت أمامى السوار الذهبى يوم كنت خارجة من الملجأ لتضربى لى مثلا من العفة والقناعة ، ولتثيرى فى نفسى عطفا واعجابا . فلما آويتك وأسبغت عليك نعمتى كفرت بى وزعمت أننى أب لك ، وأن فى اتحاد المكان دليلا على هذا ، واننى انما كنت أزور الملجــأ لأنك أنت فيه ،

ولم يكن اختيارى لك ممرضة فى مستشفاى عبثا ولا لهوا ، انما هو بر خفى يصل الأب به ابنته من حيث لا يعلم الناس . فكيف تجرئين على أن ترجمى المحراب بالحجارة ، وأن تدنسى بياض حياتى بهذه الفرية الكبيرة ! وأنا الذى تعلق قلبى بالمساجد وأنا شاب فلم أقترف خطيئة ؟ لا لا ليس فى وسعى أن أحتملك بعد اليوم ، فاعزبى عنى فأنا فى غنى عن خدماتك .

ودارت بها الأرض الفضاء ، وغشى عينيها سماذير حتى لم تعد ترى شيئا ، وانما بدت أمامها الدنيا أشباحا تتراقص . ولم يكن هناك بد من البكاء فبكت ، ولكن الدموع كانت سلاحا مفلولا ولما أفاقت قليلا تكلمت :

ــ هل يسمح سيدى بأن يعرفنى مصدر هذا الخبر ، ثم لعله يتبين له بعد ذلك زور ما ادعوا !

ــ مصدرالخبر ؟ أناس كثيرون . انالمستشفى كله يهج به... ولكن أنا آتيك بمصدره .

وضغط الجرس فجاءه خادم ، فقال له :

ــ الى بفلانة .

ودخلت احدى الثلاث اللاتى دبرن المكيدة ، وكانت لسوء الطالع أكثرهن مكرا ودهاء . وبسط الطبيب الاتهام وواجهها بليلى ، فاتجهت اليها بوجه هادىء صفيق ثم تنهدت واتجهت الى الطبيب ثانيا وقالت فى تباله :

ــ ما كنت أظن أنك ستغضب هكذا يا سيدى الدكتور ولا كنت أظن أن فيه لليلى ضررا . وبقية الشهود معروفون

والمستشفى كله يعلم ، ولعلها ألقت بهذا الخبر الى أناس سوانا ... وهذا كل ما عندى ... أعندك ما تقولينه يا ليلى ؟

وأجهز موقف تلك الشاهدة على ما أبقى غضب الطبيب من قواها ، وتخيلت غدها فأظلم فى عينيها الوجود ، وخانها الحزم ، وتخلى عنها الجلد والتماسك ، وأفلت من يدها الزمام فلم تستطع للمصيبة دفعا . فلم تزد على أن قلبت فيهما عينين دامعتين وقالت :

ــ لم أقل وان ثبت لديك أننى قلت ...

وطرقت الباب يد سريعة لم تنتظر صاحبتها حتى يؤذن لها ، ففتحت ودخلت ، ولم تكن سوى امرأة الدكتور ك ... عرض لها أمر فجاءت .

وبادلت زوجها التحية ثم جلست ، وضحكت الأقدار من دخولها على ليلى فى هذه اللحظة الحاسمة .

وأذن للشاهدة بالخروج ، وتبادلت المرأتان بمشهد من الطبيب نظرات الحقد والكراهة ، وألقى على النار حطب كثير فانتشر اللهب وتكاثف الدخان حتى عجزت ليلى عن تلمس الطريق . ورأتها زوجة الطبيب دامعة . فضحكت فى تهكم وقالت :

ــ ماذا هنالك ؟

قال الطبيب وقد عاد اليه شيء من كرمه :

ــ لا شيء ... الا أننى استغنيت عن خدماتها ... تستطيعين أن تخرجى يا ليلى ... سلمى كل ما فى عهدتك الى كبيرة

الممرضات ، ثم اذهبى الى كاتب المستشفى لتأخذى بقية حسابك . وتفضلى غير مطرودة .

فسارت ليلى ولم ترفع اليهما طرفا ، ولم يكن هناك مجال للجدل ولا للكلام على مسمع من تلك التى تعرف طويتها .

ولو أنها نظرت خلفها وهى خارجة لآخر مرة من هذه الحجرة ، لرأت سيفا مسلولا من عينى هذه المرأة التى كرهتها تطوعا واحتسابا . لكنها لم تنظر لأنها لم تعد يعنيها شىء .

ودعت الحوادث شبيهاتها فذكرت يوم ملجأ ج ... حين ألقت على جدر المستشفى اللامعة ودهاليزها الطويلة نظرة أخيرة . ثم اتجهت الى السماء داعية : « رب ارفع عنى لعنة أبوى فانها تطاردنى فى كل مكان » .

وسلمت ما عندها ثم تسلمت ما لها ، وأمست غريبة عن هذا المكان الذى كان لها بالأمس شأن ورزق فيه . وطافت بمن بدا لها أن تودعهن فسلمت فى صمت ، وكان بعض المسلمات يعتقدن انها بريئة لكنهن لا يملكن لها شيئا . والتقت بها أحلام لآخر مرة فدمعت عيناها وبرقت ثناياها ببسمة ساخرة .

ـ لكأننا على سفر ! قلت لك ذلك فى الصباح ! بل اننا على سفر يا أختاه فلست زميلتك بعد اليوم .

فأجابت فى جزع :

لقد عرفت كل شىء . واذا فلن أراك بعد اليوم .

ـ ترينني فى مسكنى وأنت تعرفينه ... وداعا يا أحلام !

ـ وداعا يا ليلى !

وكانت قبلتان كقبل الصباح ، لكنهما كانتا حزينتين .

لم يسر وراءها أحد كاليوم الذى خرجت فيـــه من الملجأ ، ولم يدع لها أحد بالتوفيق ، ولم تدمع عليها الا عيون قليلة . وخيل اليها أن تحطمها محقق يوم ترتطم بالدنيـــا من جديد . كانت ساهمة الوجه شاردة النظرات حين عبرت فضاء الحديقة وهى فى طريقها الى البـــاب . ولو أنها التفتت خلفها أيضا فى هذه المرة لرأت أربع نســـوة فى أربع نوافذ ينظرن من وراء الزجاج الى ضحية تمشى ، غير أنها لم يقدر لها أن تلتفت حتى أجازت الحديقة ثم صر باب المستشفى الحديدى وانفتح لتخرج منه فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، دخلته منذ أربع سنوات . وصر ثانيا وأغلق ، وأطل من بين قضبانه الحديدية المتبـــاعدة وجه نوبى قال صاحبه بلهجة نوبية :

ــ مع السلامة ...

وكان آخر ما سمعته من هناك !

ولا يزال مستشفى الدكتور ك ... فى حيه الهادىء .

ولا تزال حديقته تحمـــل الى النـــاقهين العطر والشـــذا والنســـيم ، ولا يزال ممرضوه يروحون ويجيئون ، ومرضى يدخلون وآخرون يخرجون ... وكل شىء فيه لم يتغير ...

الا أن ليلى لم تعد فيه !

(لقيطة)



أنا التى خلقت وحدى كأننى حواء هذا الزمن . . . ! !

القسم الثالث

فترة بلا عمل

١

شملتها غرفتها ككل ليلة ... الا أنها ليلة كئيبة .

كانت غائرة النجم خافتة الشعاع ، موحشة الجوانب عابسة الظلام ... فى نظرها على الأقل !

ولم يكن فى الدنيا شيء يبسم ، ولو أنها بنت الزمان البرة التى ترضى بكل شيء فيه ، وفكرت فى الماضى الطويل :

ـــ لقد كان لذيذا على أنه متشابه الأيام ، واللذة عند المروع مرادفة تماما لمعنى الهدوء .

فقالت فى نفسها :

ـــ ألا ليته يعود ! لكن عجلة الزمن تدور دائما الى الأمام .

وحسبت مدخرها فألفته قليلا :

فقالت :

ـــ لا بأس ! أختصر نفقاتى الى نصفها ، ولا أشترى شيئا من الملابس وحسبى منها ما عندى ، ففى تلك الحقيبة الكبيرة التى تحتل ركنا من الحجـــرة ما يكفينى نصف عام ... وهل أتبطل

نصف عام ؟ لا أظن ! وان تبطلت فلكل غـد رزق مع الشمس يطلع . أما العجوز فمن السهل على أن أؤدى اليها آجر حجرتها أول كل شهر . ومن السهل أن أدعى فى الشهر الأول أننى فى راحة . وفى التطريز أو فى القراءة ملهاة كبيرة .

وزارت منزل السيد الأمين ولم تكاشـفه بأمرها ، بل كانت ضاحكة الثغر منبسطة الأسارير كأن شيئا لم يعتمل فى نفسها . وردت كتـابا وأخذت كتبا . وبدا على الشيخ سرور الظافر لتحبيبـه القراءة اليها . ولم يدر أنها اتخـذت من كتبه تسلية مفيدة .

وأخذت الأيام تمر والسماء لا تمطر ذهبا ولا فضـة ؛ لأنها قابعة فى غرفتها منقطعة عن الذين ترجى لديهم الوساطة . كان لابد لها من أن تتكلم ، ولكن نفسها لم توافق بعد على الكلام .

وفتحت يوما حقيبتها ، فوجدت بها ظهارة سرير جديدة لم تفرش بعد ، وغطاءين أو ثلاثة كلها مما تسلت بعمله أيام الهدوء فقالت :

ـ وما حاجتى الى هذا كأننى جهزته لزفاف أو عملته لترف ، وما هـذا ولا ذاك من شـأنى ! ونزلت بها الى السـوق ثم عادت بثمنها . وعملت غيرها وغيرها وحصلت ثمنها ، ولكن المدخر كان على الرغم من كل هذا فى هبوط وكلما عدت الجنيهات حلت بقلبها الحسرات .

ومضى شهران وأحست العجوز بأن ليلى ليس لها عمل ، فلم تشأ أن تجرحها ، كما أن ليلى لم تصـارحها . ولكنهما كانتا

متفاهمتين . وكانت تصعد اليها لتسمر معها ، غير أن السمر كان ثقيلا على الفتاة ، فكانت تهمل كثيرا من الردود أو توجز فيما ترد به والابرة فى يدها .

وكانت الحياة عبئا ثقيلا عليها ، وبدأ جسمها يهزل ، وكسا سحنتها شقاء العاملات وهى لا تفكر فى شىء من هذا ، وانما تتجه الى السبيل الذى تحصل منه القوت . وحذفت وجبة العشاء من طعامها ولو أن السهر كثيرا ما امتد بها ، ولكن مرور الزمن وضيق المورد أفزعاها وحملاها على الكلام .

وكانت ليلة فى بيت السيد الأمين بعد مرور ثلاثة أشهر من فراغها ، وجلست اليه تتحدث . وتفرس الشيخ فيها بعينين قلما يفوتهما شىء ، فوجدها ضاوية ذاوية فقال :

ــ لعل نزلاءكم كثيرون فى هذه الأيام ، فأنا ألمح عليك دلائل الاجهاد !

فقالت فى استحياء واطراق :

ــ ليس عندى نزلاء ياسيدى .

فرابه الرد ..

ــ صارحينى بحقيقة الأمر فأنا أب لك كما تعلمين .

ــ ليس لى عمل ، انه اجهاد فكر . وعلى كل حال فأنا أنفق من مدخرى يا سيدى الشيخ ، وهو كثير !

ــ وهل يدخر الناس ليتبطلوا دائما (وتجاهل أنه فهم ماعنته ، فانها أرادت أن تنفى حاجتها الى المال) . لابد لك من عمل ، ولا

ـيد أن يكون فن التمريض ، أتحبين أن تكونى فى مستشفيات الصحة ؟

ــ أو فى غيرها ... أنا لكل مكان !

ورأت فيه شخص منقذها فزاد اكبارها له ، ورأى فيها فتاة مهيضة فزاد عطفه عليها . ثم حملها رسالة الى كبير هناك يستوصيه بها خيرا ، ويشرح له فيها بلباقة وحسن أدب حاجة ليلى الى العمل . وتسلمتها الفتاة بيد الشكر ثم خرجت الى الطريق. وتمطت كالذى ألقى عنه حملا آد ظهره ، وأحبت الدنيا ثانيا لأنها رأت أن لا يزال فيها معاقل للفضل ، ونامت نوم المتفائل الهادىء ، ولم تطرز فى هذه الليلة ؛ لأن التطريز لم يعد تسلية ، وكأنما قصدت بذلك الى أن تختم بليلتها تلك ليالى التطريز .

وأصبح الصباح فكانت فى ديوان الصحة ، ورجعت منه منشرحة الصدر مقضية الحاجة ... حمدا لله ! انه لن يتخلى عن أحد .

وبعد أيام طرق بابها ساعى البريد ليسلم اليها رسالة مسجلة ، ودارت حولها صاحبة المنزل لعلها تكاشفها بسر تلك الرسالة ، فأشبعت الفتاة فضولها بأن أخبرتها أنها عينت ممرضة فى مستشفى س ... الحكومى بالاسكندرية ، وأنها لم يبق لها على تسلم العمل الا أربعة أيام . فبكت أو تباكت وليلى فى شغل بأمرها عن بكائها .

ثم جلست تكتب خطابا ... ترى الى من تكتب ؟ الى أحلام

لتراها قبل أن تسافر .

ورأت نفسها فى القاهرة ضيفة بعد أن ثبت لديها أنها سترحل عنها . سترحل الى بلد جديد لا تعرف فيه أحدا . وهذه آخر ليلة ستبيتها فى وطن العيش .

كان الوقت أصيلا حين خرجت من منزلها ومرت على دكان الأثاث القديم الذى زارته هى وأحلام لتشترى منه متاعها . وطلبت الى صاحبه اليوم أن يعود فيشترى أثاثه من جديد ، وذلك فى صباح اليوم التالى وهو يوم سفرها ؛ اذ لم يكن من المستطاع أن تنقله معها الى الاسكندرية . وعرجت بعد ذلك على بيت السيد الأمين لتبلغ وتشكر وتودع . وكان لوداع ليلى وتلك الأسرة الفاضلة أثر بليغ فى النفوس ؛ لأن هذين الزوجين تصورا فيها بنتا لهما ، فدعوا لها بالتوفيق وزوداها بمختلف النصائح وطلبا اليها أن تكتب اليهما عند استقرارها مخبرة اياهما بجميع شئونها .

وسلم الشيخ عليها السلام الوقور ، وقبلتها السيدة قبلة صداقة .

٢

وعادت الى بيتها ودخلت الحجرة وأوقدت المصباح ، ثم أخذت تعزل ما سيباع مما لا يباع وتجمع فى حقيبة سفرها كل ما تحتاج اليه ، وجلست بعد هذا تستريح .

وحانت منها نحو باب حجرتها التفاتة ، فلمعت فى ضوء المصباح ورقة بيضاء مطوية النواحى ، حسبتها لأول الأمر تناثرت مع ما تكاثر من المهملات ، لكن الورقة كانت تناديها لأنها طويت بعناية ، فقامت لتأخذها ، وفتحتها فقرأت فيها :

« أيتها الآنسة : هأنذا قد بعثت بمن وضع خطابى تحت بابك . فلا يهولنك تهوسى وجنونى ، فاننى لم أعد أحتمل .

« كان من المستطاع أن تبادلينى النظرات مرة واحدة ، ولكنك تفرين منى فرار الخائف المذعور مع أنى أعرض عليك قلبا ما لطهارته من نظير . قلب لم يدنسه ملق ولا رياء ، من

فتى ابتلى بحبك وكان لا يعرف الحب . ولو كنت تعلمين أنك تنامين تجاهى هادئة هانئة وأنا ساهر أتعذب ، ما هنأ لك منام ولا طابت لك أحلام .

« اذكرى ــ ان رفضت ردى ــ أنه ربما أتت لك ساعة فى المستقبل تعضين فيها الأنامل على وداد مرفوض وحبيب مطرود . ولك احترامى » .

وتلفتت حولها حتى لكأن عيونا كثيرة كانت تطالع الرسالة من خلفها اختلاسا ، ثم مزقتها وأرسلتها مع الريح . ومن يدرى ؟ لعل الحبيب المرسل شاهد قصاصاتها وهى هاوية الى الأرض تتراقص . ثم ضحكت حين ذكرت حديث العجوز ، وأيقنت أنها هى بنفسها الفتاة التى قذف بها الحب فى طريق الفتى البائس فرددت ما ردت به عليها فى تلك الليلة : عفا الله عن كل ذى بلوى وعافاه .

ولم تشغل هذه الحادثة من ذهنها أكثر من الزمن الذى استغرقته .

ثم أخذت تسير فى الحجرة جيئة وذهوبا ، وتقلب فى جوانبها طرفها لأنها لن توقد مصباحها بعد هذه الليلة. وأطفأت المصباح واستلقت على السرير ... وهذه الحشية التى تحتها لن تمس جنبها مرة أخرى ! وفى مثل هذا الوقت ترى أين تكون راقدة ؟ وهكذا تتابع فى ذهنها سؤال بعد سؤال عن الغد المجهول ، شأن من يودع عهدا ليستقبل عهدا .

وفرغت من تناول الافطار فى الصباح ، وجاء تاجر الأثاث

ولم تطل المساومة حتى عقدت الصفقة ودفع الثمن ، ورأت المطلات من النوافذ فى هذا الحى البلدى عربة يد يقف بجوارها رجل ، ورأين رجلا آخر ينزل متاعا عرفن أنه من حجرة ليلى ، ودفعهن الفضول الى أن يعرفن بقية القصة ، فسألن صاحبة المنزل ثم حوقلن واسترجعن . والتف حول العربة صبيان كانوا يلعبون ... سمعوا من أمهاتهن فى النوافذ أن المتاع متاع ليلى.

وقال أحدهم :

ــ أهى ساكنة الحجرة العليا من بيت خالتى أم ثريا ؟

فقال آخر :

ــ نعم هى ذات الحذاء العالى والثوب الزاهى الجميل . لقد ذهبت لتتزوج .

وزجرهم الرجل الواقف وفرق جمعهم ، ثم دفع العربة أمامه بلا جهد ولا مشقة ، ورأته ليلى يمر تحت نافذتها وأحد الصبيان يعابثه ويدفع العربة ، فابتسمت ثم عبست كأنها تقول : متاع ليلى يحمله رجل واحد ، وهم ليلى يثقل الناس جميعا !

ومرت فترة ونزلت ، ثم عادت بحمال ليحمل الحقيبة الكبيرة وسار أمامها وسارت خلفه ، وودعتها عند الباب صاحبة البيت ، وخرجت الى الحارة وراء الحمال فاعترض سبيلها الصبيان السابقون .

وقال أحدهم :

ــ أحقا أنت ذاهبة لتتزوجى يا سيدتى ؟

فربتته وابتسمت قائلة :

ـــ نعم وسأبعث اليك بالحلوى .

فقال الثانى :

ـــ لا تصدقوا يا أولاد ، فانها ذاهبة الى أمها .

فمحت مرارة الأخرى حلاوة الأولى ، واستعلت الطيرة على الفأل ، فلاطفتهم حتى أرجعتهم ولحقت بالحمال . وبلغت آخر الشارع الرئيسى من حيها البلدى ، فألقت اليه بنظرة وقالت :

ـــ وداعا ... لقد كنت هادىء الأيام !

والتفتت الى الطريق فاذا بصاحب الرسالة أمامها وكان عائدا الى منزله ، فلما رآها على هذه الحال ألهم أنها على سفر ، فعراه ذعر وجزع ووقف فى سبيلها سائلا فى دهشة :

ـــ الى أين يا ليلى ؟ أأنت على سفر ؟

ولم تجد بأسا فى أن تجيب ، لأنه أمر لا يترتب عليه أمر :

ـــ نعم أنا على سفر .

وسارت فسار بجوارها والحمال أمامهما الى محط الترام .

ـــ ألم تصل اليك رسالتى ؟

ـــ بلى . وصلت الى من تحت الباب !

ـــ وماذا ترين فى هذا ؟

ـــ أنا لم أسلم بوجود شىء حتى أبدى رأيى فيه . وان كان لا بد من رأى فلقد اخترت أن « أعض الأنامل على وداد مرفوض وحبيب مطرود . ولك احترامى » .

ـــ اننى سيىء الحظ !

ـ لو حسن حظك لساء حظى .. لقد فاتك القطار. معذرة.. لم يفتك شيء ؛ فانه لا يقل أحدا .

ـ والى أين تقصدين ؟

ـ الى حيث لا تعلم .

فتوقف عن المسير فجأة وقال فى يأس :

اذاً وداعا !.

ولكنه لم يسمع الرد .

ودوى صفير القطار وليلى الى النافذة تنظر الى أرض بلد قضت فيه سبعة عشر عاما . بلد كان عزيزا عليها ؛ لآن عينيها تفتحت على الحياة فيه ، وان لم يكن لها فيه أهل ولا سكن .

دخلت القاهرة ولم يشعر بها أحد ، وها هى ذى تغادرها وما يودعها أحد ، وستدخل الاسكندرية ولا أحد فى انتظارها كذلك . فلا فرق بينها وبين القطار الذى يقلها ! انها واياه ما لهما من وطن ، وكل بقاع الأرض عندهما سواء .

وبدأ القطار يتحرك والناس على الرصيف متشبثون بنوافذه، ويحثون الخطا بجواره ، ويتفننون فى القاء كلمات الوداع على المسافرين ويذكرونهم بمهم الأمور فى تلك اللحظة الأخيرة ـ الا شباك ليلى فانه لم يكن فى اتجاهه أحد . وخف القطار قليلا فى مسيره وحانت من المسافرة التفاتة . فرأت فتاة تعدو ملء ساقيها ، وتلوح لها بمنديل وتقول : « مع السلامة » والصوت لاهث والنفس مبهور ، ولم تكن سوى أحلام جاءت لوداعها

فسبقها القطار . فلوحت ليلى بمنديلهـا هى الأخرى ، وزادت سرعة القطار فحجزت بينهما . ورأى الواقفون على الرصيف هناك كلا منهما وقد وضعت منديلها على عينيها لتكفكف به دمعة مسفوحة .

ورجعت أحلام وهى تتمتم :

ـ ليتنى بكرت قليلا !

وكانت ليـلى ترد على تمنيهـا حين كانت تتمتم وهى على كرسيها فى الدرجة الثالثة : هكذا حظى ولا ذنب لها ... ولو بكرت أحلام لبكر القطار بالقيام !

وغابت عن بصر النـاظر أرض العاصمة ، ومر محط ومحط والذهن شارد والعينان شاخصتان . وزايلتها فرحتها بعملهـا الجديد بعد تلك البطالة الطويلة ، وحل محلها قلق من المستقبل ، ولو كنت جالسا على الكرسى الذى أمامها ورأيتها وهى مسندة ظهرها الى كرسيها ومرسلة ببصرها من النافذة الى الفضاء ـ لأيقنت انها من الفتيات اللاتى تنزعهن الطوارىء من أحضان آبائهن وتقذف بهن الى مكان بعيد ، وما خطر ببالك أبدا أنها لا أهل لها على الرغم من أنك لم تر فى وداعها أحدا .

ثم مر محط وهدأ القطار لقربه من آخر ، وسمع «التذكرى» ينبه الراكبين الى تسليم التذاكر قبل النزول ، فأفاقت ليلى من شرودها على اسم هذا البلد ، لأن له ذكريات فى ذهنها .

نعم هو بلد الدكتور ك ... وهو بالتالى البلد الذى التقطت من مزارعه . فنهضت من مجلسـها لتلقى نظرة على مسـقط

رأسها ولترى أول مكان بدأت منه قصتها . ولم تعرف بالطبع البقعة التى وجدت فيها ولا الشجرة التى كانت تحتها ... ولكنهما كانتا منها على مرمى البصر .

ولما وقف القطار رأت نازلين ورأت صاعدين ، ورأت غير هؤلاء وهؤلاء واقفين على المحط ، وعاملين فى المزارع وسائرين فى الطريق ، وكلهم ولا شك من أهل هذا البلد .

وقالت تحدث نفسها :

ـ لعل أبى أو أمى بين الذين أرى ... لعل أمى تلك الملففة التى وراءها الخادم ، أو تلك السافرة التى ستسافر وحدها ، أو تلك التى تنادى على الفاكهة !

ولعل أبى هذا السيد الذى يركض بجواده أو هذا الذى يعمل بالمحراث ، أو صاحب هذا المقهى القريب من المحط ... كل هذا جائز ، وجائز ألا يكون لى أبوان فى هذا البلد ولا فى أى بلد آخر ، فربما كانا من تحت التراب !

ولما لم تصل الى نتيجة زفرت واسترجعت . وصفر القطار ليسير فغطى على الاسترجاع والزفير فلم يسمعه أحد من ورائها .

وبقيت عيناها عالقتين بوطن أنكرها ، والقطار ينهب بها الأرض ، حتى توارى عنهما النخيل !

الفصل الرابع

فى مستشفى س . . . الحكومى

١

هذه مدينة الاسكندرية ...

وقف القطار فيها باعثا من مرجله بتفاريق بخار كأنها آخر أنفاسه ، بعد أن قطع تلك المرحلة الطويلة .

وانزلقت أمتعة من النوافذ والأبواب بأيدى المسافرين والحمالين ، وانزلقت حقيبة ليلى الكبيرة التى حوت كل ما تملك فى الدنيا من شىء ، حتى خصلة شعر أمها الذهبى .

ولم تقف على الرصيف الا ريثما حملت الحقيبة ، لأنها لم تشغل بسلام ولا رد . ثم كانت خارج سور المحط فسألت الحمال عن أقرب نزل لتنزل فيه ، واستعانت بآخر ليوصلها اليه ويدلها عليه .

وقضت فى الفندق ليلة قلقة غير مأمونة ، لأنها بيتة ما ألفتها مثلها . وتنفس الصبح فتنفست الصعداء وتناولت ما قدم اليها من افطار ، وهبطت السلم لتذهب الى المستشفى .

لم يصادفها أحد من الخدم فى طريقها وهى نازلة ، ولا فى

البهو السفلى وهى خارجة ؛ لتسأله عن الطريق الذى تسلكه الى مستشفى س ... ولكن رجلين كانا واقفين قرب البـاب. عرفت فى أحدهما صاحب النزل فلم تجد حرجا فى أن تسأله :

ـ صباح سعيد يا سيدى .

ـ صباح سعيد يا آنسة .

ـ أنا نزيلة الغـرفة رقم ... وأريد أن أعرف الطريق الى مستشفى س ... فأنا قاصدة الى هناك .

فنظر صاحب الفندق الى الشـاب الذى بجواره وابتسم وقال هامسا :

ـ مصادفة غريبة .

ثم التفت اليها وبدأ يشرح لهـا معالم الطريق وهى واقفة أمامه وكلها اصغاء ، حتى اذا انتهى شكرته وبدأت تسـير . ولكن الشاب استوقفها بقوله :

ـ لقد فاتنا أن نقول لك شيئا يا آنسة ... ويبدو لى أنك غريبة عن الاسكندرية ، وأنا ذاهب الى ذلك المستشفى وهذه سيارتى ، فهل تتفضلين بأن ترافقينى الى هناك ؟

وكان حديثه مهذبا بريئا ، ولكن ليلى اعتذرت اليه :

ـ ان الترام مركب رخيص ... شكرا لك .

وسارت فتبادل الواقفان النظرات .

وقال صاحب الفندق :

ـ لا يزال فى فتياتنا متحفظات أو جامدات ! ما كان ينبغى لها أن ترفض المروءة !

وشق بها الترام شوارع الاسكندرية التى لا يعرفها فيها أحد ، وكانت سعيدة بأنها مجهولة . ثم ترجلت الى المستشفى حيث تسلمت عملها الجديد وحيث بدأ الزمن فى تسطير صفحاتها الجديدة .

وعلم ذوو الشأن هناك بأن لها سابق خدمة فى الجراحة فكانت فى قسم الجراحة . ورأت الذين تدفع عنهم الأمة أجور العلاج بعد أن رأت الذين يدفعون لأنفسهم أجورهم، فأحست بأن الفرق كبير ، وأن مهمتها هنا ستكون أشق وأصعب . وزاد اتساع قلبها الكبير فاحتوى المتألمين على كثرتهم .

لم يكن اليوم الأول قد مضى حين وقفت ليلى بين زميلاتها الجديدات فى أحد أبهاء قسم الجراحة ، وحين بدا الاهتمام عليهن بذلك الملك الذى استقل أجنحته من الجنوب الى الشمال حتى هبط بينهن ، فلمع فى المستشفى جمال هادىء كامل وقور . فبدأت سعاد تسألها ، كما يفعل الناس ، عن سابق عهدها بالعمل ، وعن وطنها ونشأتها . وكان على ليلى أن تجيب بالبساطة والهدوء كما يجيب غير المزور . فنسجت لهن قصة سهلة المتناول :

هى أنها نشأت فى القاهرة يتيمة ورعتها أمها وأنفقت على تعليمها من مال قليل خلفه لهما أبوها ثم ألحقها الدكتور ك ... صاحب المستشفى الجراحى الخاص بالقاهرة بالعمل معه فلقنت أصول التطبيب زهاء أربع سنوات ، ولكنها لم تر فى وجودها معه ضمانا كافيا ، فساعدها أحد الفضلاء من الذين تعرفهم فى

الحاقها بمستشفيات الحكومة . ولا تزال أمها تعيش فى القاهرة وحدها فى انتظار فرصة تنقل فيها بنتها الى القاهرة لتعود فى أحضانها .

قالت سعاد :

ــ ولكن شيئا غريبا يبدو لى فى أمرك يا ليلى ...

وسكتت قليلا ، فخفق قلبها وخالت أنها تعرف أمرها . ثم سكت الخفقان حين أكملت سعاد قولها :

ــ ليت شعرى لم عميت عنك أعين الخطاب ؟

ــ لا يزال فى شبابى فسحة طويلة .

ــ ولكنك جاوزت العشرين فيما يبدو لى ، وما كان ينبغى للعيون أن تغفلك هذه المدة الطويلة .. ان نضجك ينادى على نفسه !

ــ ليس يضيرنى أننى فت الأربعين ، ولكن الحق أننى فى السابعة عشرة .

ففتحن عيونهن جميعا وتضاحكن وقالت احداهن :

ــ لا داعى للمماراة .. أفترين من الحتم عليها أن تحمل معها شهادة الميلاد ؟ ثم قالت سعاد فجأة وبصوت خافت :

ــ اسكتن جميعا ... انه آت ... الدكتور جمال .

وتحولت كل فتاة الى مكان .

وأخذ يقترب من ليلى شيئا فشيئا وهى واقفة ، شبح شاب سريع الحركة خفيف المشية ، نحيف الجسد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، أسمر الوجه مستطيله ، صغير العينين نفاذهما . حتى

اذا كان منها على قيد خطوة نظر اليها وحياها . فرفعت وجها ما كان متجها اليه ، ولم تلبث أن فغرت فاها : « يا عجبا ! ان الدكتور جمال هو نفس الشاب الذى كان مع صاحب الفندق ، والذى عرض عليها أن تصحبه فى السيارة ! » .

ردت تحيته فى شىء من الارتباك والدهشة ، ولكنه قال باسما ليذهب عنها ما ألم بها :

ـ ان التى جاءت فى الترام ممرضة فى مستشفى س ... وما كنت أعلم ذلك .

ـ طبعا يا سيدى الدكتور . وليس للممرضات أن يجئن فى السيارات . وأنت تعلم ذلك .

ولمعت على شفتيها ومضة ابتسام وهى لا تزال مطرقة . فضحك الدكتور :

ـ وما اسم تلك التى جاءت فى الترام ؟

ـ يسمونها ليلى .

وسحره الحديث وبهره الجمال فى الثوب الأبيض ، فاستمر يسألها مداعبا :

ـ ليلى المريضة ؟

ـ بل الممرضة .

ـ وأين كنت قبل الآن يا ليلى ؟ لست أسألك عن المكان الذى كنت تبيتين فيه بالطبع .

ـ كنت قبل أن أنزل الفندق ممرضة فى مستشفى الدكتور ك ... بالقاهرة .

ـ لابد أن تكونى ماهرة ما دمت تلميذة مثل الدكتور ك...

ـ شكراً لك ... انني لا أستحق هذا الثناء .

ثم مضى لشأنه . وكانت سعاد على مقربة منهما فترامى الى سمعها طرف من الحديث ، وعجبت من هذا اللقاء الغريب ومن الاهتمام الذى أبداه الطبيب بهذه الطارقة الجديدة ، فتألمت لأنها كانت تكن له فى قلبها ما يشبه الحب ، وكان هو يعاملها بعطف يصبغ المعاملة فى بعض الأحيان بشيء من الاهتمام . ولم يكن فى أمرهما أكثر من ذلك ولا أبعد .

ثم مر بها فحياها وألقى اليها ببعض الأوامر وسار ، فرجعت تلك فورا الى ليلى لتسألها موضوع الحديث .

ثم قالت : انك تحسدين ... انه ما يكلم أحدا ... وهكذا كلمك من أول يوم !

ولم يكن هذا بين الفتاتين بداية محمودة .

ولم تكن ليلى مهتمة بذلك الطبيب الذى ربطت بينها وبينه الحوادث من أول صباح شهدها فى الاسكندرية . فلم تربط حديثه بفكرة ولم ترتب نتيجة على مقدمه ؛ لأنها ما تفكر فى أن تتزوج مثله ولا تظنه يفكر فى مثلها . واذا فكرت وحدها فى الزواج رأت أنه شيء جائز الوقوع محتمله ولكن من ترى يكون زوجها ؟ وكيف يتقدم اليها ؟ وعلى أى الأسس يتفقان ؟ انها لا ترضى بالزواج الا اذا كان بخطبة عادية كالتى تبنى عليها البيوت فى الغالب . أما أن يكون عن حب فلا ؛ لأنها لن تلعب بجمرة شوهت كثيرا من الأيدى وأحرقتها . ولكن كيف يقع

الزواج الأول ؟ وهي التي لا يدور شأنها في غير رأسها وحده ؛ لا أب ولا أم ولا أحد يتولى عنها بناء بيت لها ، فلابد أن تحمل بيديها هي الملاط . وهنا تقع في المحظور وتقبل على ما أدبرت عنه طيلة أيام الشباب ! اذا فلا حيلة ، انما هي زورق على غارب الأمواج .

غير أن القدر كان يضع حجرا على حجر دون أن تحس بأن البناء يقوم : فاهتمام الدكتور بها يزيد يوما بعد يوم ، وقد قضى العمل أن يكونا معا في مكان واحد فهما قلما يفترقان ... لا يلذ له أن ينادي غيرها ولا أن يكلف أحدا سواها بشيء وهي بجانبه دائما عند قيامه بأعمال الجراحة فلايرى منها الا خفة ودقة واخلاصا . وظن في نفسه أنه أحب عملها وهو لا يدري أنه انما أحب شخصها . أما هي فكانت تحب فيه شيئا واحدا ... كانت تحب فيه عطفه الواسع واهتمامه الكبير .

ولم تسرع الأمور في مجراها الهادىء يوما من الأيام طيلة نصف عام ، فلم يحس هو ولم تحس هي بأن شيئا خارجا على المألوف يجري في أمرها ، فكأن الحب كان في دور «الحضانة» ، في الصباح لقاء باسم وتحية مهذبة رقيقة ، وفي العمل جد ليس فيه خشونة الجد ، وتسامح وتساهل واقبال ثم حديث عادي طليق يشتركان فيه ومن معهما من الناس ، فلم تتح لأحد منهم فرصة أن يعلق على علاقتهما بحديث ــ الا اذا استثنينا سعاد . فقد كانت المسكينة تأكلها النار ، ولكنها لا تستطيع أن تتكلم .

٢

أراد القدر أن يعلى البناء فجمع بينهما بلقاء غير مقصود . كان ذلك فى أصيل جميـــل فزع فيه سكان المدينة الى البحر ليلقوا فيه بهموم النفس وآلام الحياة .

واختلفت هنالك الطبائع ، فجعل كل يفعل ما يبدو له أنه سبيل تخفيف حمله أو كشف ضره : فهذا سائر وحده وتلك سائرة وحدها . وهذا سابح فى الماء وذلك مستلق على الرمل . وهنـــاك ضحك يترامى الى السمع من أفواه جماعة ألفتهـــا الصداقة . وهذا همس بين حبيبين يحثان الخطو على الطريق ليفرا الى مكان أهدأ . وذلك رجل ســـاهم لم يستطع هواء الأصيل ولا ماء البحر أن يحجز بينه وبين همه ــ فتألفت من كل ذلك صـــورة لدنيا صغيرة تبصرها العين ويدركها الخاطر من غير سياحة ولا سفر .

وكان لليلى على الشاطىء شأن غير الذى ذكرنا من الشئون : كانت واقفة وحدها متجهة الى الكون بكل ما فيهـــا ، حتى

ما تحس دونه شيئا . وقد رمت ببصرها الى زرقة الماء وسبح خاطرها على تلك الصفحة المترامية ليكون عليها وحده كما ليلى على الأرض وحدها . ولو رأيتها فى موقفها لأيقنت أنها تمثال لمفتون بالبحر لولا أن النسيم يداعب ثوبها الأبيض ، ويسرع بذهب شعرها الى الوراء ... حقا لقد كانت خلقا عظيما يطالع خلقا عظيما !

وأخرجها من سكوتها ووحدتها وقع أقدام سكن وراءها فالتفتت مذعورة لأنها تركت أماكن الزحام عن عمد ، واذا بالدكتور جمال وراءها وقد جمعتهما مصادفة ثانية . فحياها وقال فى بشاشة وابتسام :

ــ ترى فى ماذا تفكرين ؟ أجيبى اجابة صحيحة .

ــ أفكر فى البحر .

فأغرق فى الضحك .

ــ تفكرين فى البحر ؟ لقد أقرءونا ونحن صغار : أن فيلسوفا اتجه الى السماء بفكره ووجهه ، وأعرض عن الأرض فسقط فى بئر وهو سائر ، فكان هذا سبب انزال الفلسفة من السماء الى الأرض ... أتراك يا ليلى تريدين أن تشغلى مكان هذا الفيلسوف ، فتنقلى الفلسفة من اليابس الى الماء ونحن ما فرغنا من مشاكل اليابس ؟

وأعجبها الحديث فابتسمت :

ــ ليس كذلك تماما يا سيدى الدكتور . انما لذ لى أن أطرح

فكرى الى باحة لا فكر فيها لكيلا يسبح مع أفكار الناس ، ففكرت فى البحر .

ـ انك يا ليلى فتاة غريبة ، وما أخطأت اذ عددتك فيلسوفة. كيف اذاً كنت تفكرين ؟

ـ كنت أقول مثلا : أتحت هذا المـاء سعادة وشقاء ، كما فوق هذه الأرض سعاده وشقاء ! أم انهما وقف على من يعيش فوق ظهر شيء ، كما نشقى على وجه الأرض فاذا ما دفنا فى بطنها استرحنا ؟ أقول : أيشقى السمك وغيره ويسعد كما يشقى الانسان ويسعد ؟ واذا لم يكن لنا فى الماء سعادة ولا شقاء فما أجدر بمن على اليابس أن يتمنى لنفسه تلك المسابح ، وأن يهوى هذه الحياة ما دمنا قد حرمنا السعادة المطلقة . ويسلط علينا فى بعض الأحيان شقاء مطلق . وما دمنا لا نرى على الأرض شخصا واحدا يقول : « أنا فى الأعراف . لست شقيا ولست سعيدا » . وانما ألفناه يقول : « أنا اليوم سعيد ، أو أنا اليوم شقى » .

هذا ما كنت أقوله فى نفسى يا دكتور ، فهل ترى خيرا من هذه النزهة ؟

ـ أتعبت ذهنى فى تتبع المعانى ... ان ذهنك أمضى من المشرط الذى تعقمينه كل يوم ! وبعد ، فهذا كثير عليك يا ليلى وقد فاجأتنى بشخصية غريبة ... وكأنى بك تحملين هما فى نفسك ، ولست أدرى أمن حقى أن أسألك أم أدعك فى هذه

الوحدة التى لا بد أن تحرق هذا الشباب كما تحرق شمس الصحراء نباتا ظليا سلطت عليه ؟

وبدا على وجهه ألم وحيرة ، وبدأ قلبه ينبض نبضات غريبة فاضت بالحنان والعطف واللهفة ، وأرسل اليها من عينيه الدقيقتين بنظرات لا تطرف ، وحملقت هى فيه بعينيها الواسعتين وقد ضرج الخجل خديها كأنها ندمت على أن تكلمت ... ثم قطع صمتها بصوت هادىء خافت هدجه الحنان حين أقبل عليها يقول :

ــ ليلى ... هل تقبلينني أخا ؟

ولكن أمواج البحر التى كانت تتهادى الى الشاطىء فى رضا وتؤدة ، همست فى أذن ليلى : « احذرى أن تصدقى . فان الطبيعة أصرت على ألا تهبك أحدا ! »

فقالت بلهجة متطامنة :

ــ سيدى ... شكرا لك ... تذكر أنك تخاطب من هى دونك ولا تنس أننى ممرضة وأنت طبيب . وأرجو يا سيدى ألا يؤلمك قولى ، وان كنت حريصا على أن تعرف قصتى فاليك قصتى وليست بسر : لقد مات أبى وأنا فى الثانية من عمرى ، ورعتنى أمى بما ترك لنا من مال قليل ، وعاشت لى وعلمتنى ما تستطيع ونحن فى القاهرة . ثم كنت ممرضة فى مستشفى الدكتور ك ... وجئت منها الى هنا . ولاتزال أمى هناك تعيش كما يعيش أمثالنا من الفقراء ، ولنا أقرباء فى الريف شغلهم قوتهم عن ذويهم ألهاهم أمرهم عن أمرنا ، فنحن كما ترى

تعيش وحدنا وقد رضعت فى لبن رضعته أصول العزلة وحب الوحدة ، فأنا بين النــاس أنا من الصور الناطقة التى تتواثب على شريط الخيالة ، أرى أمورهم جميعا ولا يرون من أمرى شيئا . هذه هى ليلى التى تريد أن تكون لها أخا .

فقال :

ــ ولم تعيشين فى الاسكندرية ، وتعيش أمك فى القاهرة ولا مصلحة لها هناك ؟

ــ انها فى انتظار تقلى اليها .

ــ ولم لا تنتقل هى اليك ، وكلا الأمرين سواء ؟

وذكرت أنه لا بد للعيش من زور وغرور ، وانه ما يجب أن يكون المرء صادقا فى كل ما يقول ، فتركت التاريخ يعيد نفسه . وقالت :

ــ ربما كان ذلك قريبا وكان خيرا ، فكل بلاد الله عندنا سواء.

وزالت من الأفق الغربى آثار النهار ، وامحت تفاريق شفق أحمر ، وأظلم الماء وتراقصت فيه أضواء المصابيح التى كسرتها الأمواج . فنظرت ليلى حولها وقالت :

ــ لا بد لى أن أعود .

وسارت فسار بجوارها . كانت صامتة وكان صامتا كأنهما يراجعــان ما قالا من كلام . وكانت هى الى البحر وهو الى الناحية الأخرى ، ونشط هبوب النسيم فرمى بغدائر شعرها الطويل الى كتفيه فبعد عنها قليلا ، وواصلا المسير صامتين . ولو كنت شاهدهما وهى رافعة رأسها الى السماء وهو مطرق ،

وهى ساكنة الملامح وهو ساكن . وهى ممسكة عن الكلام وهو ممسك . كأنهما يستمعان الى وقع أقدامهما على سيف البحر ـ لأيقنت أنهما حبيبان دبت بينهما جفوة أو فرغا من عتاب وما وصلا الى صلح !

لقد ربطت قوة فى الغيب بين هاتين النفسين ولم يشعر صاحباهما ، وظنا أن هذه الغمرة غمرة جلال. وقد كانت نشوة حب غير عنيفة . ودخل كل منهما فى وجود الثانى . واذا دخل كائن فى وجود كائن فقد ملك عليه كل شىء . وتكلم الطبيب :

ـ طبعا ستركبين الترام يا ليلى .

ـ الى البيت .. وأنت ؟

ـ أنا على ميعاد .

ـ أرجو لك حظا سعيدا . وداعا .

ـ وداعا (وسرت فى حديثهما رقة النسيم) نسيت أن أقول لك شيئا ... سأغيب عن المستشفى أربعة أيام لآننى مسافر الى بلدى سأرى والدى ثم أعود ؛ لآننى ما رأيتهما من زمن

ـ وأين بلدك يا سيدى الطبيب ؟

ـ بالقرب من الجيزة .

ـ اذا ستمر بالقاهرة ... سلم على البلد الطيب !

ـ غدا تحبين الاسكندرية .

ـ قلت لك : ان البلاد عندى سواء .

ـ ولم حننت الى القاهرة ؟

ـ لأنها شبه وطن ! !

(لقيطة)

فضحك :

ـ وداعا ثانيا .

ـ وداعا يا سيدى .

ثم سارت ولم تلتفت .

وأصبح الصباح وكانت فى المستشفى ، ولم يكن به الدكتور جمال ، فأحست أن شخصا قد غاب ، ولم تذهب الى أبعد من ذلك . وانقضت أربعة الأيام وكان اليوم الخامس ، فألفت نفسها تسرع الخطو وهى فى الطريق الى المستشفى ، وأحست أنها اليوم أكثر سعادة أو أنها مرتاحة على الأقل ... ترى لم هذا ؟

وتركت نفسها تفكر ورجعت بفكرها الى الوراء ، وتركت قدميها تسيران فأدركت شيئا جديدا . لقد كانت فى كل مساء غاب فيه تأوى الى فراشها فيعد ذهنها بحركة آلية : واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة . وما كانت قبل ذلك تعرف عد الأيام .

ووقفت فجأة كأنما أشرفت على هوة . لهف نفسى ... لم هذا ، اننى منتبهة اليه ... وأخشى أن يكون هذا هو الذى يسمونه الحب ! اللهم ألهمنى الصواب فى كل ما أفعل وما أقول ، فقد رشد من أرشدته ، وقد غوى من كتبت عليه الغواية .

ولما التقت العيون هناك تفاهمت فى صمت على أن البعد لم يكن شيئا مريحا ، وتصافحا فأبقى يدها فى يده فترة غير عادية . وأوحت اليها الغريزة النسوية أنه يحبها ، فامتلأت خجلا وخوفا وارتباكا ، وسلت يدها من كفه بلطف . ودار دولاب

العمل وانتهى الطبيب من جراحة خطرة نقل بعدها المريض الى سريره ، ثم دخل الطبيب الى حجرته يتبعه ثلاث كن فى مساعدته : ليلى وسعاد وثالثة .

قالت سعاد تطرى وتتملق :

ــ أهنئك يا سيدى الدكتور . ان الجراحة ناجحة ولا شك . وسيذكر كل الأطباء فضلك بعد يوم واحد ، لأنك أنت وحدك الذى أقدمت عليها ، ووثقت من نجاحك فيها .

ــ أرجو ذلك يا سعاد . وعلى كل فهذا أثر ارتياح أعصابى لأننى عائد من الريف .

ــ حيا الله الريف وحيا جمال الطبيعة فيه ! لا بد أنك استمتعت فيه بنزهة حلوة .

فاتجه جمال الى ليلى ، ثم وجه الحديث اليهن جميعا وقال :

ــ لست أنكر فضل هذه النزهة ، ولا أنسى أثرها ما حييت ... ألا ترين رأيى يا ليلى فى أن هواء الأصائل يطير بالكرب ، وأن أنداء المساء تغسل عن النفوس الآلام ! ما بالك ساكتة لا تتكلمين ؟

فابتسمت ليلى وأومأت بأنها توافق .

وتكلمت الثالثة ، فقالت فى استخفاف وانكار :

ــ ليلى دائما صامتة !

فردت عليها بابتسامة وهى تقول :

ــ وأنت دائما متكلمة ... أضيفى نصف صمتى الى كلامك ونصف سكونى الى حركتك تكن منا فتاة معتدلة .

فقال الدكتور جمال :

ــ من منكن تستطيع أن تحكم ؟ أعقل ليلى أمضى من لسانها ، أو لسانها أمضى من عقلها ؟

فقالت سعاد :

ــ نريد منها أولا خطبة ومقالة .

قالت ليلى :

ــ اذاً فلن تحكمى فى القضية ... ما أنا خطيبة ولا كاتبة .

فقالت سعاد مورية :

ــ ربما تكونين فى غد خطيبة .

وأودعت كلمتها كل ما تحمله من بغض . ثم خرجت ليلى الى شأنها وتبعتها الفتاتان بعد قليل .

وجنحت شمس ذلك اليوم الى الغروب فى أصيل جميل ، وماج الشاطىء ككل يوم بأخلاط من الناس ، ووقفت ليلى فى المكان الذى تعودته ، ولم يكن يخطر على بالها أن النقاش الفائت سيعود لأن المصادفة اذا تكررت لم تعد تسمى مصادفة.

كانت جاعلة للبحر عينيها وللنسيم غدائرها وأطراف ثوبها ، واختلط ذهب الأصيل بذهب الشعر . فألقى على الوجه روعة غير مألوفة . واتسع الصدر لينهب الهواء فبرز الى الأمام ، وشخص بصرها فلم تحرك رأسها فبدت أسالة الخد بأوضح ما تكون . ولم تكن قاصدة الى أن تعرض هذا الجمال وانما تولت الطبيعة عرضه عنها كما تفعل فى تجميل الزهرة بالألوان قبل أن تجلوها للعيون .

وسمعت ليلى صوتا مألوفا يهتف فى رقة ودعابة :

ــ وترى فى ماذا تفكرين اليوم ؟ أفى البحر أيضا ؟

فالتفتت اليه فى ذعر جميل وقالت بصوت خافت :

ــ أجئت أيضا ؟ أنا لا أفكر الا فى البحر .

فسكت قليلا ثم قال مشيرا الى حديث الصباح :

ــ ولماذا لا تفكرين فى الخطبة ؟

ــ أنا لا أصلح أن أكون خطيبة .

ــ وهل هناك من هى أصلح منك ؟ انك من اللائى تتوفر فيهن الشروط .

ــ ما أظن ذلك ، وأنا أعلم الناس بنفسى .

وهنا اتجه اليها بكل ما فيــه ، وتنفس الهواء طويلا كأنه سيغوص تحت المــاء ، وضرب يدا على أخــرى وتركهما متماسكتين قريبا من صدره ، ثم أنشأ يقول :

ــ أصغى الى يا ليلى ولا تراعى من شىء . سأسألك فأجيبى بكل ما فيك من صراحة ، ولكن لاتستوضحينى سبب السؤال وسترين من النتيجة التى نصل اليها ما أرمى اليه . فدق قلبها سريعا وخيل اليها أنها فى لحظة حاسمة من حياتها ، فابتلعت ريقها وقالت :

ــ لك ذلك .

فبدأ يسألها وهى تجيب بسرعة وصراحة وبساطة :

ــ كم يوما غبتها عن المستشفى ؟

ــ أربعة أيام .

فضحك .

ــ لقد أخطأت فى أول جواب ... انها خمسة .

ــ كلا يادكتور : السبت ، والأحد ، والاثنين . والثلاثاء ... فهى أربعة .

ــ أعددتها قبل الآن يا ليلى ؟

ــ لست أذكر .

ــ اذاً فلم تشعرى بأننى غبت .

ــ وكيف ذلك ؟ انك تترك فراغا يدركه جميع الناس .

ــ كنفس الفراغ الذى يتركه الدكتور رشدى مثلا ؟

فسكتت قليلا .

ــ لا تسكتى يا ليلى ... أجيبينى على البداهة .

ــ ليس الفراغان بمتشابهين .

ــ انك موفقة . وما المعنى الذى تحسينه نحو كل فراغ ؟

ــ ماذا أقول ؟... من الحتم أن أقول ؟... يخيل الى عند ما تغيب أن شيئا مألوفا لم أعد أراه . هذا ما أحسه .

ــ وهذا هو ما أفتش عنه ؛ لأننى أحسست فى الريف بمثل ما أحسسته فى الاسكندرية : كل منا أحس أن شيئا مألوفا غاب عنه !

ــ يا لك من مدرس ماهر !

ــ ويا لك من تلميذة ذكية ! ولكن أتفهمين معنى الألفة يا تلميذتى العزيزة ؟

فقالت بلهجة المتحدى وهى ترسل بالكلام بطيئا واضحة كأنها تخشى أن يفوته منه شيء :

ــ نعم أفهم معنى الألفة يا سيدى الدكتور فاستمع الى : الألفة معنى لا يلام فيه أحد ولا يجر عليه أرقا ولا يخلف له متاعب . هى اعتبار غير مؤذ لا يتشبث بالقلب ولا يتشبث به القلب ولا تذرف العينان عليه الدموع . هذه هى الألفة كما أحسها وأفهمها لا تزيد على أكثر من ذلك ؟

ــ لله أنت يا ليلى ... لقد فاتك أن تقولى شيئا آخر : ان الألفة طفل يترعرع ويشب ، فاذا ما كبر سمى اسما آخر .

ــ أتريد أن تقول لى شيئا جديدا ؟ أفهم ما تعنى يا سيدى الدكتور ، وأنت شديد المراس وأنا ضعيفة . وربما كان من الخير لى ولك أن يحلق كل منا فى أفق الآخر من بعيد ، فأنت شرق وأنا غرب ، والشرق والغرب لا يلتقيان .

ــ ماذا تقولين يا ليلى ؟ يبدو لى أنك مغلقة القلب .

ــ هو ما تقول .

ــ ولكن أأغلقته على أحد ؟

ــ نعم .

فقال فزعا مستعجلا :

ــ على من يا ليلى ... أصدقينى .

ــ على ليلى ... على نفسى وحدها أغلقت قلبى !

ــ هداك الله ! لقد ظننتك تحبين .

ــ عفا الله عنك فقد أفزعتنى .

ـــ وهل يفزع أحد من الرضا والهدوء والسلام ؟

ـــ ذلك ما لا أستطيع أن أجيب عنه ولا أحب أن أجربه .

ـــ انه لا اختيار فيه لأحد ولا ارادة ... أترين هذه الأمواج التى تجرى الى الشاطىء مدفوعة بما هو خارج عنهـا ؟ كذلك شأن القلب يا ليلى فى كل ما يدع وما يأخذ .

على أننى لست فى حاجة الى أن أحمل العناء وليس يريحنى أن أحملك أنت عناء . فأنت كما تقولين مغلقة القلب دون الناس تعيشين فى أفق نفسك . ويخيل الى أنك لا تفكرين فى غـدك ساعة من يومك كأنك ستغيبين مع الشمس ولن تبعثى مع الفجر . أما أنا فلا أقول : اننى أحببتك حتى لاتفزعى لأنك فيما يبدو لى مستعبدة لفكرة قديمة ـــ وانما أقول : انك لازمة لى فى حياتى فأنا أتقدم اليك خطيبا . على أننى لست من الذين تقلبت قلوبهم فأحبوا ثم هجروا أو أحبوا ثم هجروا ؛ فان أبغض شىء الى أن أبحث عمن يحمل قلبى عنى . وكانت غايتى فى الحياة أن أبنى بيتى على غير حب كما تبنى معظم البيوت حتى لا أراع فى حياة الحقيقة بفقد ما كنت أتصور وجوده فى حياة الخيـال ـــ كانت هذه غايتى ولكن القدر دفع بك فى طريقى فرأيت أنك ضرورة لى وأنك ستسعدينني وأنا أيضا سأسعدك ، فهل توافقين ياليلى على ما أقول ؟

ـــ أنا سأسعدك ؟ ما أظن أنها فكرة ستدوم ، ولا أننى أهل لأن أحظى بهـذا الشرف . ثم أنك كما يبـدو لى وقعت فيما سموه الحب وما كنت تود أن تبنى عليه بيتاً . فتش عن نصفك

الثانى فى غير دائرتى يا سيدى . ودع النصف الذى أمامك تدور به الدنيا حتى يلتقى بنصف آخر .

وسكت . فساد بينهما سكون خلقته الدهشة لأنه رد ما كان يتوقعه ولكنه أقبل عليها يقول :

— لست أستطيع أن أزيد على ما قلت يا ليلى ، وهو شىء طبيعى كان الرد عليه غير طبيعى . لماذا لا تسعديننى ؟ ألأنك فقيرة ؟ ما كان الغنى مصدر سعادة ولا اسعاد ، ولا كان الفقر مصدر شقاء ولا اشقاء . انما هو اختلاف وائتلاف بين نفسين فتشقيان أو تسعدان . فادخلى الى نفسك يا ليلى واسأليها تعودى بجواب عن حال بيت يضم شخصينا .

— هبنى وحدى فى الحياة ، وأننى لا أعرف أقربائى ، وأن أمى قد ماتت ، أتستطيع أن تقبلنى زوجة ؟

ونظرت اليه لتسمع كلمة الفصل ، فسمعته يقول :

— بغير شك . أنا لايعنينى الا التى ستكون فى بيتى ، ولكن أماتت أمك يا ليلى أم أنت تفرضين الفرض ؟

— كلا انها ميتة .

— ألا تذكرين أنك قلت : انها تعيش فى القاهرة ؟

— يعز على الفتاة دائما أن تعلن أنها تعيش وحدها . لابد لنا من أناس يحوطوننا . والقليل منا من يحطن أنفسهن بأنفسهن . ألا ترانى محقة فيما ادعيت ؟

— بلى . وأنت من اللائى يحطن أنفسهن بأنفسهن .

— ان الحوادث بيننا جرت سريعا .

ــ أتراك اعتبرتني خطيبا ؟

ــ سيدى لا تتعجل . لابد للأمر من أسبوع حتى أقنع نفسى بأننى أهل لأن أحمل هذا الشرف ، وحتى تعاود نفسك فربما كنت تحت تأثير غير عادى . ولكن حدثنى : أليس من الضرورى أن تستشير أبويك فى أمرك هذا ؟

ــ ذلك شأنى فلا تشركينى فيه .

وتحولا للمسير والليل ساج ، وسارا على سيف البحر متجاورين يخفق قلباهما بالحب ويحجز بينهما تأخير « كلمة » لأنها لما توافق . ولم يطل بهما المسير حتى توافقا للوداع تحت نور مصباح انعكس شعاعه على وجه ليلى ، فقرأ فيه صاحبها معانى ظنها سكينة واستقرارا ، ولكنها كانت شرودا وحيرة وذهولا موهها عليه الليل . وبقيت الكلمة معلقة فى فم الزمن ، فياترى ماذا تكون ؟

٣

أكبت على خطاب تكتبه والليل ساكن ... تكتبه الى رجل واحد حنا عليها والناس جميعا بها يرمون . ذلك هو السيد الأمين ، عله يرى فى أمرها رأيا :

« سيدى وأبى ، ومن اذا دعوته لحادثة أجاب .

« لم أستطع أن أعيش بعيدا عن الحياة يا أبى ولو أننى غير راغبة فيها . ومن الغريب أن نمقتها ونسعى الى القوت من أجل أن نعيش ... مفروضة علينا على أى وجه ، واذا تخلص منها شقى سخر منه الأشقياء أول الناس !

« لقد جذبنى تيارها دون أن أحس فألفيت نفسى فى الغمار وأنا أظن أننى بمعزل . ووجدتنى وجها لوجه أمام طبيب شاب معى فى المستشفى ، لم أسمح له بأن يقول : انه يحبنى . ولكننى لم أستطع أن أمنعه من أن يقول : انه يريد أن يتزوجنى . وقد وقع

بيني وبينه شيء من الألفة لا من الحب ؛ لأنني ثمرة حب أخاف عواقبـه .

« غير أني في حيرة من أمري فهو لا يعرف سري . فهل ترى من الضروري أن أكون صادقة ؛ لأنه من المحـال أن تبنى على الأكاذيب حياة طويلة . ذلك ما توحيه الى نفسي وان كنت لاأجد منها الشجاعة على أن أبوح به .

« أبي : لقد كنت مرشدي ومعيني فلا تبخل على بفضلك ؛ فانني لا أجد في الدنيا من آوي اليه . ولك مني محبة ودعاء » .

ولم تلبث أن حمل اليها البريد بعد أيام الخطاب التالي :

« بنيتي العزيزة :

« لا تظني يا بنيتي أن الفضيلة رسم على الأرض ولا وجود لها في قلوب الناس . واعلمي أنه لابد للوجود من قوى متعارضة يناهض بعضها بعضا ، فلو خلق الخير وحده ما استقامت أمور ، ولو خلق الشر وحده ما استقامت أمور ، وانما استقامة الأمر في أن يتعاوره الخير والشر . فثقي بوجود الفضيلة ما دمت واثقة بوجود الرذيلة .

« وليس لك بعد ذلك أن تنفي الفضل عن ذلك الطبيب فربما كان من أهل الفضل ، صارحيه بأمرك ما دمت واثقـة من أنه حريص على أن تكوني زوجة له ، واحملي نفسك لحظة من الزمن على أن تنكشف لبعض الناس فما أنت مذنبة وانما هم المذنبون. فان قبلك زوجة بعد ذلك فما غششته ، وان كانت الأخرى فلك الله . هذا هو السنن الذي يحتم علينا الخلق أن نسير فيه ... لا

خداع ولا مواربة وقضاء الله لابد واقع ، وأتمنى لك التوفيق »

شد ما آلمها أن تكون شاهدة بنفسها على خستها بمحضر من ترجو أن يكون قرينها مدى الحياة !

والسيد الأمين ، رجل فاضل فظن أن الناس جميعهم فضلاء .. ولكن أليس من الجائز أن يكون هذا الطبيب فاضلا أيضا ؟ قد يكون ذلك وقد لا يكون !

وعلى أى حال فلن تستطيع الفرار منه الا بعد ايجاب أو رفض ، ولا بد للايجاب من صراحة وللرفض من تعليل .

وقرت على أن تذوق المر مرة أخرى ، ولن يؤذيها ذلك كثيرا فهو شيء قد تعوده اللسان . ومر الأسبوع سريعا والطبيب يرقبها ، حتى كان اليوم الأخير فيه وقابلها فى الصباح فابتسم وسلم ثم قال :

ـ لم أتحول عن شيء .

ـ لا . لابد من نزهة .

ـ أرجو أن يكون الجو ملائما .

ـ علم ذلك عند الله !

وقلبت كفيها ثم سار كل الى شأنه .

وشهد البحر فى أصيل ثالث حوار ليلى وجمال ، وذهبت ليلى لتسمع الحكم فى قضية العمر بعد أن تبسط لذلك الغريب سرها الغريب . ولما التقيا كانت أكثر ابتساما وأدنى الى التفاؤل على أن الهدوء والشجاعة لم يبينا عليها الا فى ذلك اليوم ؛ لأنها بقيت أسبوعا كاملا تجمع ما بين أطرافهما .

وأراد جمال أن يفتح الحديث فقال في رقة :

ـ ليلى... أنا أريد اليوم أن أكون شاعرا (فقالت في نفسها : ليتنى أحظى منك بقلب الشعراء) ، كما كنت في ماضي الأيام فيلسوفة ، فاستمعى الى واحكمى على ... ترى هل سأصلح ؟

وقلب في الكون ناظريه ثم بدأ يقول :

مالى أرى على الكون في هذا اليوم دلائل من رضا وهدوء ، حتى كأن كل ظاهرة من ظواهره قد انسجمت مع أختها ففاض من انسجامهما جمال ؟ النسيم قد هادن البحر فهو هادىء والبحر هادىء ، والطير في السماء متسللة فطار العقاب بجانب العصفور ، وأغصان الشجر متناوحة في غير جلبة ولا ضوضاء ، والشمس ترسل أشعتها على الناس ما فيها وهج ولا حرارة . وزرقة الأفق هناك منسجمة مع زرقة الماء حتى كأنهما من أديم واحد ، وخطاطيف البحر تحلق وما تهوى على السمك كأن بينها مهادنة وسلاما . وكل شيء في الكون وادع ساكن في رضا وجمال ، كأن الدنيا تهيأت لعيد ... فلعله عيدنا يا ليلى ... ولعلى أجدت محاكاة الشعراء !

ـ كان يجب أن تكون شاعرا يا دكتور لأن قلبك من قلوب الشعراء ، ولا بد أنه واسع كريم . غير أن القلوب الواسعة الكريمة قد تضيق بشيء ولا تسعه ، وليس عليها من حرج فيما تفعل ؛ لأن القلب لا يعرف دستورا ولا قانونا ، فدستوره منه وقانونه فيه .

ـ وماذا عسى أن يكون ذلك الذى يضيق عنه قلبى ؟

ـــ هو ليلى .

ـــ ماذا تقولين ؟ لابد أن يكون أحدنا مجنونا . انما جئنا الى هنا لكى تجمع بيننا كلمة ، وقد قلت لك : اننى لم أتحول فكيف يضيق قلبى عنك يا ليلى ؟

ـــ لقد خلت أننى أصلح ولكن الخيال زايلنى ، خير لنا أن نفترق وأرجو ألا نتراءى الا فى المستشفى ... لا تحملنى على أن أصغر فى ناظريك ، وحسبى أن قلبك قد حلق حولى فى يوم من الأيام .

ـــ ليلى ... أهناك ماض تخافين منه ؟ كونى صريحة معى وثقى بى . فنظرت اليه وقد سبحت عيناها فى الدمع ، ثم استرجعت بصرها وحولت وجهها عنه حتى هدأ ما بها قليلا فأخذت تقول :

ـــ الخير لى أن أعيش بعيدا عن الناس فلست من الناس وليس الناس منى . ولكنك تأبى الا أن تلح على هذه الوحدة المنيعة ، ولست أدرى ما هذا السلطان الذى فرضته نفسك على نفسى حتى أحس بأننى أريد أن أقول لك كل شىء ، فان غفرت فأنا لك ، وان آخذت فلن ترانى فى المستشفى بعد اليوم فسأتحول الى مكان آخر !

ـــ كأنه سر خطير ... أنت تحملين أكثر مما تطيقين ، فتخففى من حملك وكونى واثقة بأن للعفو مواضع كثيرة .

ـــ جمال ... أنا كاذبة ... فهل تغفر لى ، اننى كاذبة ؟

ـــ أهذه غاية أم بداية ؟

ـ انها بداية وسأبنى عليها ، وقد كذبت على جميع الناس لأن وجودى كان أثرا لكذبة !

ـ ليس الكلام واضحا تماما ... وقد أفهم منه شيئا عظيما .

ـ انه شىء عظيم ... لقد أحبت أمى ... وفر أبى ... هذه هى ليلى !

ـ أتريدين أن تقولى : انك ......

ـ اننى لقيطة ... اننى لقيطة !

وأجهشت بالبكاء وهو ذاهل من أثر المفاجأة ، جامد كأنه تمثال .

وعاد اليها تماسكها قليلا ، وثاب اليه عقله قليلا .

فقال كمن يتكلم وهو نائم :

ـ أنت لقيطة ... لقد ظلمك الناس !

ـ ولكننى أستغفرهم وهم الظالمون !

ثم اتجهت الى السماء كأنها تفتش عن كوكب ، واتجه هو الى البحر كأنه يطلب فى صفحته الواسعة حلا لمشكلة ضاق بها أكثر ساكنى الأرض وكانت الأمواج ترتمى على الشاطىء فى تكسر متتابع ، وخيل الى ليلى أنها تهمس فى أذنيها : « ألم أقل لك يوم اللقاء الأول احذرى أن تصدقى فان الطبيعة أصرت على ألا تهبك أخا ؟ ستعيشين وحدك وستموتين وحدك يا ليلى وما لك على الأرض من قريب ولا حبيب » .

فنطق فمها دون أن تحس :

ـ نعم هو كذلك .

فاتجه اليها الطبيب وقال :

ـ نعم هو كذلك يا ليلى تستغفرينهم وهم الظالمون ... لشد ما عكست الأوضاع فى هذه الدنيا وحمل الأوزار غير فاعليها ! لا تراعى من شىء فأنت لى ، وسأحملك على كتفى لآمر بك من عقبات المجتمع . أنت خطيبتى وسأعلن ذلك .

وقبلها قبلة الأزواج .

قالت :

ـ كأننى لم أصغر فى ناظريك !

ـ بل لقد صغر فى ناظرى الناس .

ـ أما أنا فقد عفوت عنهم ، لأننى وجدت فيهم رجلين كريمين : زوجى والسيد الأمين !

ـ أتعرفين السيد الأمين ؟ ان اسمه ذو شهرة .

ـ هو الذى رعى ضعفى وربى خلقى ووجه حياتى ، وهو الذى حمانى من الناس .

ـ اذا لقد ظفرت بدرة ... ليلى : لننس مافات فلا تتكلمى فى الماضى ... هيبنا خرجنا من البحر معا لنعيش على هذه الأرض فى حياة جديدة سعيدة .

وغطى الاسكندرية مساء جميل كان غلسه فى عينى ليلى ضياء . وتحول الخطيبان ليسيرا فقالت ليلى :

ـ لست أنسى هذا المكان ! سأحجه دائما لأنه مبارك !

(لقيطة)

فقال جمال :

ــ الكون كله مبارك ، ألم أقل ان الطبيعة تهيأت لعيد !

ثم توافقا للوداع فاختلفت التحية عن كل ليلة : لقد قال كل منهما لصاحبه :

« وداعا .... والى اللقاء » .

٤

طرق الأسماع مع الصباح فى المستشفى بعد يوم أو يومين خبر خطبة ليلى الى جمال ، فكان خبرا غريبا لأن الجميع اعتبروها محظوظة .

غير أن الخطيبين كانا فى شغل بنفسيهما عن جميع الناس ... كانا فى حمى من السعادة لا يشعران فيه بأحد كأن الدنيا فى نظر كل منهما تجمعت فى شخص صاحبه . وكان شغل الطبيب الشاغل أن يستكمل على عجل كل المراسيم حتى يزف الى عروسه . أما ليلى فانك ان دخلت الى نفسها وجدتها سعيدة غير موقنة بالسعادة ، كمن استيقظ من نومه فوجد نفسه منصبا على عرش ، من أجل ذلك تركت نفسها تنعم بالحاضر الجميل ، وغد غيوب وأسرار وأقدار .

واتفقا على أن يسافرا معا الى بلده ليقدمها الى أبويه . وكانت ليلى خائفة من هذا السفر فقالت فى جزع :

ـــ ترى أمن الضرورى أن تقول لهم كل شىء ؟ ان الطبقتين مختلفتان يا دكتور ، وهذا ما يحول كثيرا بين الأحباب .

فقال :

ـــ تذكرى كلامى فى الماضى يا ليلى ... هذا شأنى وحدى وأنا على بينة من أمرى ولست غافلا عن شىء . وأنت ستنزلين عندنا ضيفة ، ولن يلح عليك أحد فى السؤال ، وستكونين من غير شك موضع اعجاب . وعلى كل فلن يحول بينى وبينك أحد . غير أنك من الآن من أهل الاسكندرية وابنة أحد التجار .

قالت فى ألم واستحياء :

ـــ آه ... لقد حملتك على أن تكذب وما أغنى نفسك الكبيرة عن كل هذا ! انى بدأت أشعر بفداحة حملى عليك . جمال : من المستطاع أن تتخفف منى فلست مرتبطا بشىء ، وان كنت مرتبطا فأنا لا أطالبك ... أنا خائفة ... أنا خائفة !

ـــ ألم أقل لك : انه من الضرورى أن ننسى الماضى فلا تتكلم فيه ؟ وأنا لا أكذب وانما أريد أن أحاور المجتمع وأفرض له الفروض حتى يقتنع ، فهو ينفر من غير المألوف دون أن يفكر فيه .

ليت شعرى أى حدث سيبسط من هذا الانقباض ان لم يبسطه منك جمال !

فابتسمت ليلى وجرى الرضا فى وجهها مع ماء الشباب .

وامتد بالقطار المسير وهما فى نشوة من سعادة تشرحها العينان للعينين أو يخاطب بها اللسان اللسان ، حتى اذا وصلا الى القاهرة

نقلا الى قطار الصعيد . وحل المساء ونزلا فى محطة جنوب الجيزة ، وتهيأ بيت فى قرية نحو الشرق لاستقبال قادم عزيز .

كان القمر يرسل أشعة فضية على المزارع الخضراء ، وينعش بنوره السارين والسمار حين استقل جمال وليلى عربة أبيه التى كانت بانتظاره والتى يجرها جواد من خيار الجياد . وألقى ليل الريف الهادىء فى قلب الحبيبين روعة غير محدودة ، وتراقصت أضواء القمر على وجهيهما وغمرهما السكون الذى لايسمع فيه الا وقع سنابك الجواد على الثرى الندى مجاوبة لأصوات الضفادع والجنادب ؛ فكان لهما من ذلك موقف ما وقفاه أبدا من قبل ، وخيل اليهما أن العربة انما تسرى بهما الى طريق الخلود . وقال كل منهما لصاحبه دون كلام . « اننا سعيدان ! » .

ومرت ساعة من الزمن على غير رضا منهما بمرورها ، وبدا للعين فى أحضان الليل قرية جاثمة بين المزارع فقال جمال :

ـ هذه قريتنا ...

فقالت فى خفوت واستحياء :

ـ جمال ... أتسمع شيئا ؟

ـ ماذا أسمع ؟

ـ خلتك سمعت هذا الصوت من قبل وانتبهت له ... ان قلبى يدق دقات غير عادية خيل الى أنها تغلب على وقع سنابك الجواد ... اننى خائفة !

ـ سنرجع فى هذه العربة ونحن أشد ما نكون تدانيا ياليلى . لا تخافى من شىء فنحن نكرم الأضياف .

ــ مرحبا بك يا بنى .

هذا ما قالته أم جمال لجمال ، ثم طبعت على جبينه قبلة الأمومة

ــ ان فى الحجرة الخارجية ضيفة عزيزة ... أين أبى واخوتى ؟

ــ كلنا قادمون .

واجتمعوا جميعا فى الحجرة ، وقدمها جمال الى أهله باسم بنت أحد التجار الاسكندريين . ورحب بها البيت فزال مابها من وحشة ، وجلست بجوارها أم جمال وهى امرأة محنكة حذرة تحللت قليلا من جمود الريف ، وحدثتها فراستها أنها لابد خطيبة ابنها حينما طالعت مابهرها من جمال ، والمرأة دائما « مجهر » المرأة يتجلى تحت فحصه كل ما دق من محاسن وعيوب .

قالت أم جمال :

ــ ألم ترى الريف قبل ذلك يا ليلى .

ــ كلا بالطبع لأننى نشأت فى المدينة ، ولكننى أعرف عنه الكثير لكثرة ما خالطنا من الريفيين ، فنقلوا الينا جمال طبيعته فى جمال طبعهم . وكلهم فضلاء .

قالتها ، ولو أن لبعض الريف فى ذهنها ذكريات سيئة . فضحكت السيدة ضحكة استحسان وقالت :

ــ انك يابنيتى جمة الأدب ، فمديح السكن من مديح الساكن . أرها غدا يا جمال معالم الريف لتتوفر لها نزهة حسنة ... طف بها فى المزارع والحدائق ، ومر بها على منابت الذهب ليزيد حبها للريف .

ثم قاموا للعشاء ، وأوت ليلى بعد ذلك الى مخدع منفرد .

واجتمعت الأسرة فى حجرة ليتكلموا فى الطارىء الجديد ، وكان المتحدثون هم جمال وأمه وأبوه وأخوه الذى يصغره . وأخذ جمال يعرض القضية عرض المحامى الحذر الحريص فقال :

لقد تركتم لى مطلق الحرية فى أن أختار شريكتى فىحياتى بعد أن وثقتم من اتزانى وعقلى . وقد عرفت هذه الفتاة فى ظروف هادئة لأن أباها من أصدقائى ، ونحن أغنياء بمالنا ويكفينى أنها مهذبة مثقفة .

قالت الأم :

ـ أنت تحبها يا جمال . أليس كذلك ؟

ـ بلى يا أمى . ولكن ليس من الحب الذى يعمى عن العيوب.. لقد عرفتها ثم أحببتها . وأنت تستطيعين أن تحكمى عليها .

ـ بالفراسة والتخمين ، وبهما أحكم أنها مهذبة طيبة . أما جمالها فمما لا يختلف فيه اثنان .

وقال الوالد :

ـ أنا لا أعارض فى شىء ما دامت طبقتها غير نازلة ، فان اختلاف طبقة الزوجين يوسع الهوة بينهما . ولا بد لى أن أرى بيتها بادىء ذى بدء .

فقال جمال فى لهفة :

ـ لكنك توافقنى على أن شخصها صالح قبل أن تتحدث عن الأشياء الأخرى .

ونظر الأب الى زوجه فرأى فى عينيها نظرة توسل بألا يخالف شعور ابنه فيما يريد ، وأن يحظى منه بموافقة مبدئية .

فقال الرجل من فوره :

ــ لا شك انها صالحة .

فأمسك جمال بزمام الأمر ، ثم هجعت الأسرة حتى الصباح .

واستيقظت ليلى على شقشقة العصافير المزدحمة على أغصان الكافور بالقرب من نافذة حجرتها ، ففتحت النافذة وألقت على الجمال الباسم نظرة مستفهمة ، وافتر ثغرها عن ابتسامة وهى تهز رأسها وتقول فى نفسها : ترى ماذا يكون هذا الصباح الجميل ؟ أبشير هو أم نذير ؟ فلا بد أننى كنت سمر البارحة .

ونقرت بابها يد خفيفة ، ثم سمعت جمالا يقول بصوت واضح مستعذب :

ــ ليلى ... ألم تنهضى بعد !

وأدركت الرضا فى نبراته ، فسرى عنها قليلا وأجابته وهى تفتح الباب :

ــ لقد سبقت الشمس .

ــ حسن فالقوم هنا ينهضون مبكرين .

ــ لأن الكون فى الريف لا يطول سباته ... هو مبكر فى اليقظة والمنام .

كان وجهه فرحا نضرا وان كان قريب العهد بالنوم ، وكل جارحة من جوارحه تؤدى عملها بخفة : فوميض عينيه زائد وحركات يده عند الكلام سريعة ، وقسمات وجهه بليغة التعبير ؛ لأنه كان فى نشاط عصبى خلقته السعادة . وجلس على كرسى فى حجرتها وقال مبتسما :

ــ لقد نسيت يا ليلى أن أقول لك : صباح سعيد .

ــ لأنه صباح سعيد .

ــ بغير شك . فقد غنمنا فى الموقعة الأولى .

ــ أرجو ألا تكون الحرب سجالا ، وأن نسجل النصر الأخير !

ــ دعى التشاؤم ، فالشؤم كله فيه . ان الكون يحتفل بنا فى الريف ، كما احتفل بنا فى الاسكندرية ... آنت لى ما فى ذلك شك ولا عسرة .

ثم غادرت المخدع لتبترد ، وتلقت من أفراد البيت تحيات طيبات ، وزادت الحفاوة بها عن قبل لما عرف موضعها من جمال ، وهو البكر العزيز للأبوين ، والأخ الأكبر للبنين . وأيقنت ليلى أن الدهر نام عنها نومة أبدية ، وأن مابينها وبين الزمان طاح مع الرياح ، فقد أمسكت بيدها مفتاح الفردوس لتنعم فيه بالنعيم المقيم .

٥

كانت نزهة خلوية فى الحقول الضاحية تحت شمس الخريف السقيمة . خرج فيها ابن سيد القرية مع خطيبته العزيزة لينتهبا سعادة هبطت عليهما من السماء .

وخاضت ليلى شعاع الضحى وخضرة المزارع فى ثوب أزرق وحذاء خفيف ، وعفر تراب الريف قدميها الجميلتين لأول مرة .

ثم استوى بهما المسير على طريق سوى يسـايره نهر صغير وتقوم على جانبيه أشجار عالية اتخذت فيها الطير أوكارا ، ليكون لها من علوها وعزلتها مأمن من عادية الانسان .

وسارا واليدان متماسكتان . والسكون منصت الى ما يقول العاشقان .

قالت ليلى كأنها تحدث نفسها :

ــ حسبى هذا ... ما على ما نلت من مزيد . ليت قصتى معك تنتهى الى هذا الحد ، فأستحيل الى قطرة من قطرات هـذا

الندى اللماع تمتصنى الشمس بعد لحظـة ، فأتطاير وأفنى فى عرض الأثير !

فالتفت اليها وقد فتح فيها عينيه وهما متابعان المسير . ولكنها لم تتوقف عن الكلام :

ــ ان سعادة بنى الانسان دائما مشوهة ، لأنها نفحة من الخلود وليست به ، وصورة من نعيم الأزل وليست حقيقة ، ولو كنا لا نذكر حين نسـعد أن لسعادتنا نهاية ما شـقينا ، ولكنا كهذه الطـير التى تتصايح فوق رءوسـنا ما تأبه بصباح ولا مساء ، لكننا نشرب الكأس وأعيننا الى قاعها لنرفعها من أفواهنا متى نفد الشراب .

لست أريد أن أعكر عليك صفوك ، ولكنى أتمنى ألا توقظنى من الأحلام طرقة ، وأن أستل من سعادتى بسهولة ولين .

أنظر الى هذا الطريق الجميل ، وانظر كيف يلذ لنا أن نسير فيه ! انه لابد أن ينتهى ! وقد يعن لنا أن نعود أدراجنا لنستعيد اللذة التى فقدناها بانهائه ، ولكن طريق السعادة وطريق العمر انما يقطعان مرة واحدة .

قال وقد علت وجهه دلائل الجد والاهتمام :

ــ لا أظن يا ليلى أننا سنفرغ من ذكر السعادة والشقاء ، ولا يبعد أن تذكريها وأنت فى جلوة العروس !

نحن شىء من الكون فلنكن كأى شىء فيه : أمنع منجـل الحصاد هذه المزارع من أن تخضر ؟ أو أمنع شـعاع الشمس

قطرات الندى من أن تتلألأ ؟ أو منعت شباك الصياد هذه الطيور من أن تغرد ، وذلك السمك من أن يمرح !

لابد أن نرقص مع الراقصين وأن نبكى مع الباكين ، فلنرسل الضحكات فى باحة الرقص ، ولندخر الدموع ليوم الدموع ... دعينا نتحدث عن عش زواجنا .

وابتسم . وابتسمت :

ـ حتى نسافر الاسكندرية .

ـ الجو هنا أهدأ .

ـ كل جو أنت فيه هدوء ... والام تؤدى هذه القنطرة ؟

ـ لقد انتهى بنا المسير . سنعبرها الى العزبة .

وتحولا عن الطريق الظليل الى الشرق ليعبرا القنطرة ، فنظرت اليه مبتسمة وقالت :

ـ ولكننا سنعود لنقطعه من جديد .

وخف فلاح ليستقبل السيد ، وأعقبه ثان وثالث ، وصعد الخطيبان الى بناء العزبة ليستريحا قليلا ، ثم نزلا وأوغلا فى المزارع حتى وصلا الى الحديقة فافترشا عشبها وطعما من ثمارها ، والجنينى قابع بالقرب منهما ، حتى أمره جمال أن ينصرف ففعل . فقال مداعبا :

ـ ليلى ... ترى أمثل هذا الرجل شقى أم سعيد ؟

ـ لقد عدت لذكر السعادة والشقاء . ولا يبعد أن تذكرهما وأنت فى ليلة الزفاف (وضحكت) ولكننى أستطيع أن أحكم بأنه سعيد .

ــ كيف يسعد وهو فى مثل هذا الشقاء ؟

ــ أين هو الشقاء ؟ انك تراه وهو لا يراه ؛ لأن أمثال هؤلاء المساكين يعتقدون أنهم خلقوا لمهامهم هذه لا لأعظم منها ، فان أدوها وشبعوا سعدوا ... كسرة من الخبز ، وجرعة من الماء ، وخرقة تستر البدن ، وقوة على أداء المهنة . هذه هى السوارى الأربع التى تقوم عليها سعادة الفلاحين ، والا ما تردد فى الحقول غناء ، ولا شهدهم فيها صباح ولا مساء !

فأغرب جمال فى الضحك ثم قال :

ــ ألم أقل لك . اننى ظفرت بدرة ؟ أنت لى ما فى ذلك شك ولا عسرة .

وأخذ كفيها بين كفيه .

فأرسلت اليه من عينيهـا الخضراوين بنظرة تفيض بالرضـا والأمل كأنها تقول : أرجو أن يكون ذلك ، وأن تكون حياتنا كجو هذه الحديقة : نفح أزهار وتغريد أطيار .

* * *

أطفئت كل الأنوار فى المنزل الا فى حجرة واحدة ، كان فيها جمال وأمه يعيدان الحديث فى شأن ليلى . والأمهات دائما مفزع الأبناء ، يفضى اليهن بكل عظيم وينفض اليهن كل دفين .

قال جمال :

ــ أنا أريد أن أتراجع قليلا فيما قلت يا أماه ، أريد أن أعدل ما قلت لك عن ليلى .

ـ خيرا يا بنى ، أبدا لك من أمرها شيء ؟

ـ أأعجبتك أخلاقها يا أماه ، وأعجبك جمالها ؟

ـ لقد أبديت لك رأيى من قبل ولا أزال عنده .

ـ أأنت على يقين من أنك لا تتحولين ان ظهر هناك عامل خارج عن شخص ليلى ؟

ـ لست أفهم ماذا تعنى . لقد قلت لى : انك تحبها وكفى . ولكن كاشفنى بحقيقة الأمر ، ولن أرمى بفلذة كبدى فى موقد النار ... سأحقق لك السعادة يا جمال بكل ما أطيق .

ـ أمى ... انها فقيرة !

ـ ربما كانت من أسرة أناخ عليها الزمن . وقد قلت أن أباها من التجار .

ـ وهذا ما أريد أن أتراجع عنه أيضا ، فانها يتيمة ! .

ـ فقيرة ! ويتيمة ! اذا فكيف كانت تعيش ؟

ـ من فضلة مال خلفها أب مسرف ، ومع أم كانت من المسرفات . صدقينى يا أماه أنه لولا ما فرط من أبويها لعزت ليلى على أن ينالها مثلى . انى أريد أن أسجل فضلا وأن أغتنم فضلا ، فكونى ساعدى عند أبى ، ولا تدعينى أخالف مارسمت فى حياتى من طاعة دائمة ، فأنا أطمع فى دعواتكما على أبواب هذه الحياة .

وبلغ به التأثر منتهاه فاغرورقت عيناه بالدموع . فرفعت الأم وجهها الى السماء فى تبتل وخشوع ، وهمهمت بدعاء قصير .

وفى اليوم التالى قالت لابنها :

ـــ لقد وافق أبوك بعد لأى ياجمال ؛ لأنه لم يعجبه أن تكون زوجك من دون طبقتك . وقد علمناك يا بنى لتعظم فى عينيك المثل ، ولكن الحب صرعك فهوينا جميعا من ورائك . وافق أبوك على الخطبة ، ورغب فى أن تتريث حتى يتبين أمر نفســه ، فان الناس سيقولون : « ترى من الذى صاهره الدكتور جمال ؟ » أما قلوب الآباء فتقول : « ليصاهر جمال من يشاء خير من أن نفقد جمالا » . ونستطيع أن نقول أيضا : « اننا أغنياء بحسبنا ومالنا عن أن نتخذ من الأصهار وصلة نطاول بها الناس، ونفاخر بها المفاخرين » وهذا ما كتب لك فى الأزل فعلى بركة الله . غير أنه يجب أن تبسط من انقباضك حتى لاتعكر على الفتاة المقام . فهذا ليس من الكرم فى شىء .

فاستخفه الطرب حتى كأنه حوى الدنيا كلها بين يديه. فنزل سلم البيت ثم صعده ، ثم نزله ثم صعده ، ثم دخل حجرة نومه وأغلقها عليه ، ووقف أمام المرآة يرجل شــعره وألفى نفسه يغنى . لقد انبعثت أنشودة السعادة من بين شــفتيه دون أن يحس ؛ لأن طائفة كبيرة من المجتمع وافقت على زواجه ، وهذه الطائفة هى أبواه . ولأنه بر بوعده لحبيبته حين قال لهــا : « سأحملك على كتفى لأمر بك من عقبات المجتمع » . ودخل عليها فى حجرتها وشد على يدها :

ـــ ليلى ... لقد كسبنا الموقعة الأخيرة !

ففغرت فاها واتسعت عيناها كأنها لا تصدق :

ـــ أقلت لهم كل شىء ؟

ــ قلت لهم كل شئ وما بقى هناك سر .
فقالت بصوت هامس مخنوق :
ــ الا سرا واحدا يا جمال !
ــ ليس له وجود يا ليلى ، لقد عفى عليه الزمن فامحت آثاره ودرست معالمه . وقد خرجنا من البحر من جيل لنعيش معا فى حياة جديدة سعيدة .
ــ أخشى أن يكون قد ادخرها لآخر لحظة ، وأن يكون متناعسا وهو يقظان !
ــ لا . لا أظن ذلك ... نحن اليوم أسعد الناس !
واتفقا على أن يكون الرحيل غدا ، فخرجا الى المعاهد التى لبسا فيها سعادة منغصة ؛ ليعرضا فيها ما لبساه من سعادة جديدة أكيدة . وسارا على طريقهما المعهود ساعة من زمن .
كانا يقفان تجاه كل شجرة ويحييان فيها كل عش ، ويفحصان ثرى الطريق كأنهما يفتشان عن مفقود ! وغمرتهما فى هذه المرة موجة من الأبدية ، فأحسا كأن كل ما حولهما لا ينتهى : فالطريق ممدود بشجره الى غير غاية ، والنهير يجرى بجواره الى غير نهاية ، وهما كأنهما ملكان فى صورة انسان يستطيعان أن يسيرا على أى شاءوا : على التراب ، أو على الماء ، أو على الهواء ... عطلت فى نظرهما قوانين المادة لأنهما تحت سيطرة الروح !
وجنحت الشمس الى المغيب فتحولا ليعودا ، واضطرم قرصها الأحمر على خط الأفق وتريثت قليلا قبل أن تغيب ،

واتجه نظر الحبيبين الى الكوكب العظيم ، ووقف جمال وقال كمن ألهم شيئا .

ـ ليلى ... يجب أن نقف قليلا لنودع أسعد شمس أشرقت علينا فى الوجود .. واذكرى اليوم واذكرى البقعة .

ـ انه يوم الخميس بجانب أضخم شجرة على يمين الطريق .

ووقفا متجاورين هنـاك وقد غمرهما الجلال ، وشخصت عيونهما نحو الغرب ، كأنهما فى صلاة الى غير قبلة .

لم يكن يعلم الا الله من الذى سيقف فى هذه البقعة بعد أيام لاتعد طويلة ؟ أهو وحده ؟ أم هى وحدها ! أم هما معا سيقفان؟

وروحا من أسراب الطير ، وخفت خطاهما قليـلا ، وغطت وجهيهما ظلال الليـل فعادتهما موجة الأبدية ، وخفت الحديث بينهما حتى كأنهما يخافان أن يزعجا نفسيهما . وقال جمال :

ـ أتذكرين !

ـ الماضى أم الحاضر ؟ ان ذهنى فى نشاط يذكرنى كل شىء كأننى أقرأ فى كتاب !

ـ أتذكرين المرة الأولى يوم كنت تفكرين فى البحر !

ـ لقد أخرجتنى من الماء .

ـ من أجل ذلك كنت درة ... ها نحن أولاء قد قربنا ... وداعا أيها المساء ، سنشهد مثلك ونحن عروسان .

ـ نعم وداعا ؟

وأوى الخطيبان الى الفراش مبكرين ، لأنهما بائتـان على سفر .

(لقيطة)

٦

وفى الضحى شد الجواد الى العربة ، ووقفت بالباب حتى يودع المسافران . ونعمت ليلى بمشهد لم تنعم بمثله من قبل ، رأت فيه حنوا مشتركا بخلت به عليها الطبيعة ثمانية عشر عاما ، واستمتعت بقبلة من أم خطيبها وطبعت على يد والده قبلة ، فخالت أنها خارجة من مهد الطفولة وأنها تودع أهلها ، فلم تملك دموعها وهى فى طريقها الى الخروج . ورأتها السيدة وهى تبكى فربتتها قائلة :

ـ أنت يا بنيتى رقيقة الحس ... لسرعان ما تعلقت بنا ! لا تجزعى من شىء فسنراك قريبا .

ورأى جمال بكاءها فضحك ، لكنه كان معجبا بها فى قرارة نفسه .

ووضعت حقيبة كبيرة أمام السائق ، وصعد جمال وصعدت ليلى ، وابتعد الواقفون قليلا لما تهيأت العربة للمسير ، وأومأوا

بأيديهم للسلام . وسمع صوت نسوى من وراء الباب يهتف : « مع السلامة » ثم شد عنان الفرس وتحرك للسير ، وتفرق المودعون ، واختلفت بهم الطرقات .

ونظر جمال الى ليلى وهو يقول :

ـ لقد مرت الأيام بسرعة حتى كأننا لم نقم ساعة !

وسمع صوت ينادى من وراء قبل أن تسرع العربة :

ـ سيدى الدكتور ... سيدى الدكتور ...

فوقف السائق ونظر جمال خلفه ، ثم عاد فقال لليلى :

ـ لقد نسيت حقيبتى الصغيرة .

كانت تجد السير بها فتاة ريفية جميلة مكتملة الشباب ، دخلت البيت بعد أن تحركت العربة فألفت سيدتها تطلب من يوصل الحقيبة ، فأخذتها لتوصلها وتودع . ولما أدركته كانت الى الناحية التى بها ليلى . ووقع نظرها عليها ويدها مبسوطة وهى تقول : « مع السلامة » .

ولم تكن رأتها من قبل . وفجأة صعد الدم الى وجه كلتا الفتاتين وبدا فى عينيهما العجب ، ودلت قسماتهما على أنهما متعارفتان : ومرت لحظة وهما ذاهلتان والطبيب ينظر ، ثم تكلمت كوكب وقالت :

ـ ألست ليلى ؟ كيف أنت يا سيدتى ؟

فردت عليها باعياءة ، وجدت العربة فى المسير .

لقد كانت كوكب السهم الأخير الذى احتفظ به الدهر

ليســدده الى قلب الحبيبين ، ومن أجل هذا نسيت الحقيبة ، وضلت عن مكانها الأبصار .

قال جمال :

ــ كيف تعرفينها يا ليلى ؟ انها زوجة أحد الزراع فى العزبة.

ــ كانت بائعة لبن أيام كنت فى مستشفى الدكتور لك ...

فزفر زفرة طويلة وأخذه من الارتباك ما لم يأخذه من قبل :

ــ خير لنـــا أن نواصل السير ... انها بلهاء ... هى طبعا لا تعرف أكثر من ذلك !

فمسحت ليلى العرق الذى نضح به وجهها ولو أنها باردة الأطراف ، وأجابته وهى مطرقة :

ــ طبعا هى لا تعرف .. جمال أرجوك أن تمسك حتى نركب القطار ... ألم أقل لك ؟

ورفعت منديلها لتمسح العرق لكنها مسحت دمعا وعرقا .

وسخرت منهما العصافير بالشقشقة والأغصان بالتراقص ، وهو يقلب الطرف فى المزارع من حوله وهى ناظرة تحت قدميها ووقع سنابك الحصان فى آذانهما كأنه دف حزين .

ونزلا فى المحط وقفلت العربة ؛ لأن جمالا لم يشأ أن يمكث الســائق حتى يناوله الحقيبة . ووقف الخطيبان وقد ركبتهما الغمة واســتولت عليهما الحيرة . وما أن احتوتهما مقصورة القطار حتى عادا الى الحديث ، وكانت ليلى البادئة :

ــ **جمال** : ألم أقل لك ؟ ألم أقل لك : اننى حمل ثقيل عليك . كان الواجب أن تتخفف منى ؟ أو لم أقل لك : اننى أخشى أن

يكون الدهر قد ادخرها لآخر لحظة ، وأن يكون متناعسا وهو يقظان ؟ قد قلت لك كل ذلك ووقع ما كنت أخشاه ! ان الطبيعة ربطتنى بحجر ورمتنى فى الماء ، فلا تغص من ورائى ودعنى أغوق. لقد ربط بينى وبين كوكب اللبن ولا أكتمك شيئا .. هكذا شاء الله أن يفعل وله ما يشاء ، وليس لنا كل ما نشاء !

ــ وماذا فى رباط اللبن ... هى بائعة وأنت شارية .

ــ لا ... هناك أكثر من ذلك .

ــ وماذا عسى أن يكون ؟

ــ لقد أرضعتنى واياها زينب ... هى فى البيت ، وأنا فى الملجأ !

فابتسم :

ــ انها سخرية طريفة ... وهل علمت بذلك كوكب !

ــ كلا لم تعلم .

وساد بينهما صمت كأنه جفوة ، وتذكر جمال موقفها واياه أمس ساعة الغروب وما شهداه وما أشهداه على حبهما ، ووضع رجلا على أخرى ، وجعل ينقر بالقدم التى على الأرض كأنه يوقع بها لحنا .

أما ليلى ، فانها لم تكن آسية على شيء الا على أنها تخلق لحبيبها المتاعب . ولو دخلت الى قلبها لرأيت رغبتها فى تخليص خطيبها من عبئها ــ أكبر أمانيها وأعظم آمالها .

كان القطار ينهب بهما الأرض فى طريقه الى الاسكندرية حينما كانت كوكب تفضى الى سيدتها فى ابتسامة البلهاء بأنها

تعرف عن ليلى شيئا وعلينا أن نقول : انها كانت تفاخر بهذه المعرفة ، وما كانت تقصد الى الايذاء .

قالت كوكب :

ـ انى أعرفها يا سيدتى .. يا لها من مصادفة سعيدة ! انها فتاة جميلة طيبة النفس كنت أبيعها اللبن قبل أن أزف الى مجاهد وكانت ممرضة فى مستشفى الدكتور ك ... وتسكن غرفة واحدة على سطح منزل فى القاهرة فى حى ... وقد كنت أستريح عندها كلما نال منى التعب ؛ لأنها أفاضت على حنانا ما رأيته من أحد أبدا .

ولما رأيتها مع سيدى الدكتور عرفتها لأول وهلة ، ولكن الوقت كان ضيقا فلم أزد على أن سلمت عليها .

قالت السيدة فى وجوم :

ـ قد عرفت القصة ، فانصرفى لشأنك .

وعجبت الفتاة لأنها رأت من سيدتها غير ما كانت تتوقع .

وفى الوقت الذى هبطا فيه مدينة الاسكندرية هبط والد جمال مدينة القاهرة ، وقابل الدكتور ك ... فى مستشفاه . وكان بينهما تعارف ، وجلسا يشربان القهوة . وما لبث الدكتور ك ... أن سأله عن ابنه الطبيب .

فقال الوالد :

ـ هو بخير والحمد لله .. ويفكر فى أن يفتح « عيادة » لمرضاه . وقد عثر على ممرضة علمنا أنها كانت تعمل عندك

فجئتك لأسألك عن مهارتها وشخصها . ان اسمها ليلى وقد تركت خدمتك منذ عام .

فسكت الطبيب سكتة طويلة .

فقال له الوالد :

ــ أهناك شيء يا سيدى ؟ وخفق قلبه . وغاب لونه ، لكنه تجلد وتماسك .

ــ أبدا ليس هناك شيء . انها ممرضة ماهرة .

وأمسك وعاودته الذكريات القديمة ، وكأنما همست زوجه فى أذنه بأن يقص باقى القصص ، فابتسم وأكمل الحديث :

وجميلة أيضا يا أبا جمال ... ولقيطة ان شئت .

فجمع الرجل جلد الريفى وشجاعته على مواجهة المصائب ، ولكنه لم يملك أن همس :

ــ لقيطة ! لقيطة ! ما لنا وللقيطات يا سيدى الدكتور !

وهب واقفا وسلم وانصرف .

وخيم فى هذه الليلة سكون من هم ، ووحشة من مخاوف على ثلاثة منازل : اثنان فى الاسكندرية هما منزلا ليلى وجمال ، وثالث فى الريف هو منزل أهل الطبيب .

ووقف القدر وقفة الآمر ليخرج من بين شفتيه كلمة !

٧

كانت ليلى فى عسرة من أمرها وهى تمر بين المرضى عقب هبوطها المستشفى بعد السفر . ولو لم تكن رزينة الملامح شديدة الجلادة لعرف كل من هناك أنها مهمومة .

ورأت على أحد الأسرة مريضة جديدة : امرأة قد جاوزت الأربعين « مطحولة » مهزولة ، تنم ملامح وجهها الأصفر عن آثار جمال قديم ، ولفحت وجهها شمس الريف فدلت على أنها تعمل بالمزارع .

كانت مستلقية على السرير كاسفة تقلب فى سقف الحجرة عينين غير مستقرتين كأنهما من زئبق ، وقد جمعت شعرها الأصفر تحت منديل من « الشاش » ، وخرجت بعض ذوائبه فبدا فيها قليل من الشيب الباكر ، لأنه غبار الحوادث .

ووقعت عليها عين ليلى فنظرت اليها صامتة ، وبعد برهة سألتها :

ــ متى جئت أيتها السيدة ؟

ــ منذ ثلاثة أيام ... ومتى تجرى لى العملية ؟

ــ لست أعلم .

وولتها ظهرها وسارت .

ومر يوم ويوم ، وأعقبه ثالث ورابع ولم تجر للمريضة عملية . ومرت ليلى بجوار السرير .

فعادت تسألها :

ــ متى تجرى لى العملية ؟

فأجابت بخشونة :

ــ قلت لك : لست أعلم ... ما هذا الالحاف فى السؤال ؟

ــ ومالك قاسية على هكذا وهم يقولون عنك انك رقيقة ؟ ان حظى يطاردنى فى كل مكان !

فتألمت فى نفسها لأنها ما رميت قط بخشونة ، ولكنها كانت فى حالة نفسية مرة . وشقت ابتسامة طريقها بين شفتيها وهى تنظر اليها .

فقالت المريضة :

ــ انما ألحف عليك فى السؤال لأننى شعرت بميل نحوك ساعة رأيتك .

ــ أتغازليننى ؟ !

ــ لقد مر دور الغزل فلا عليه سلام !

ــ اذا فلم أحببتنى ؟

ــ لأن فيك مشابه من ابنة لى ... أرجوك ألا تغضبى

ــ لا .. ليس فى هذا ما يغضب (وتشاغلت بفحص بطنها) .. أهى هناك فى الريف ؟

فنظرت اليها ولم تتكلم ، وترقرقت فى عينيها عبرة ، ومال شحوبها الى شحوب الموتى . وكانت ليلى لا تزال مائلة عليها ورأسها قريب من رأسها فقالت لها فى حنان :

ــ معذرة فقد أثرت همومك ... أهى ميتة ؟

ولكن المرأة لم تجب .

فتركتها لأنها لم تشأ أن تثقل . ثم بدأت الغريزة تحدث كلتيهما بأن سرهما واحد . ونادت الأمومة بنوتها فردت عليها وان كان بينهما حجاب من التناكر والأيام .

وبذلت لها ليلى بعض العناية ، وأبدت المرأة تعلقها بها حين سألتها :

ــ من أى بلد أنت يا ليلى ؟ أرجوك ألا تغضبى .

فضحكت :

ــ أتريدين أن تعرفى بلدى ؟ أنا من القاهرة .

ــ من القاهرة أعلى التحديد ؟

ــ كأنك محققة ... من قرية قريبة منها .

ــ ان مسقط رأسى قرية هناك ، ولعلنا أبناء وطن واحد ؟

ــ أنا من قرية ....

ــ لقد صدق حدسى وأصابت فراستى ، فأنا واياك من بلد واحد .

وقرب مابينهما قليلا ، ودفع القدر كلا منهما نحو صاحبتها .

فقالت المرأة :

ــ أتتمتعين بحياة الوالدين ؟

فأجابتها ليلى وهي مكبة عليها في صراحة وهمس :

ــ بل أنا يتيمة ... لا أب ولا أم !

واصفر الوجهان وتألقت عينا كل منهما ، ومرت برهة من شك وحيرة ويأس ورجاء .

وقالت ليلى :

ــ لكنك لم تخبريني عن ابنتك ... أهي ميتة ؟

ــ ربما كانت حية ؟

ــ ماذا تقولين ؟ أيجهل أحد شأن أبنائه ؟

ــ لقد سرقها اللصوص وهي لا تزال طفلة .

ــ لك الله ! ومتى كان ذلك ؟

فوضعت كفها على جبينها وأغمضت عينيها كأنها تستدني بعيدا ، وتذكر شيئا طال عليه الآمد ، ثم رفعت يدها ونظرت اليها :

ــ كان ذلك ... كان ذلك ... من نحو ثمانية عشر عاما .

ثم غمرهما صمت ولم تستطع احداهما أن تتكلم بعد ذلك .

وجاء العصر فتقابلتا في بهو من الأبهاء حين جمعتهما المصادفة . وألقت عليها ليلى التحية وبرقت عيناها بسؤال . ولم تكن المريضة بأقل منها قلقا ولا لهفة ، فأقبلت عليها وأمسكت بثوبها وقالت:

ــ ليلى ... أمات أبواك من زمن ؟

ـــ كفى أن نعرف أننا من بلد واحد ... دعيني .
ولكنها تشبثت بها واضطربت أنفاسها وتتابعت دقات قلبها :
ـــ أرأيت أمك قبل أن تموت ؟
ـــ ولا أبى !
ـــ ليلى ... قد أكون أمك فترفقى بى . ان ابنتى كان معها خصلة من الشعر .
وأخرجت غدائرها من تحت المنديل .
فكادت تفلت من فم ليلى صرخة ، وقالت لها بصوت مخنوق وهى تتلفت حولها فى ذعر :
ـــ أنت أمى ... أنت أمى ولا شك !
وكان البهو خاليا فلم يرهما أحد ولم يسمعهما ، فتعانقتا وقبلت الأم بنتها القبلة الثانية ، ثم مسحتا الدمع . وحوى المريضة السرير وجالت الممرضة بين الأسرة .
وبقى السر مكتوما عن جميع الناس فلم يعلم به أحد .
أطفئت المصابيح فى حجرات المرضى وبقيت مصابيح الطرقات ترسل نورها الباهت على أرض المستشفى وحيطانه اللامعة . ونام مستريح وأن متألم وخيم السكون وان قطعته فى بعض الأحيان أنات .
وجلست الأم وابنتها فى مكان منعزل ليراجعا تاريخ ثمانية عشر عاما . والتقت ليلى بأم مشكلتها وبمن رمتها للسباع ، ولكنها كانت تناديها : يا أمى !
جلستا على كرسى من الخشب يتسع لجالسين ، وقد سامت

الوجه الوسيم وجها عراه الذبول وجرى فيهما دم واحد . وظهر من تحت القلنسوة البيضاء والمنديل الأبيض شعر كلتيهما الأصفر كأنه من شعاع شمس الريف .

وسرت في المكان بعض زفرات قبل أن يبدأ الحديث ، وعرضت قضية العمر والخصمان فيها حبيبان في عرف الطبيعة عدوان في حكم القانون . قالت الأم :

وهكذا صرت ابنتي يا ليلى ؟

ـ ولكنك لم تسمّيني ولم تزوديني بزاد الا ما تعارفنا به ، وكنت واياك من طريدات المجتمع ، ولكنني أدعوك : يا أماه أنت أصلي وان كنت أي شيء ، أحنو عليك على الرغم من كل شيء !

وأجهشتا بالبكاء .

ـ أعيذك يا بنيتي من أن يكتب لك ماكتب لي في حياتي فانني كنت فريسة الشيطان .. أنا أدعو لك يا ليلى ويسمع الله لأنني لا أدعو لنفسي . لقد عشت لأكفر وحملت سياط العقاب غير صارخة ، ليكون تكفيري عن خطيئتي مرحمة لمن حملت بين أحشائي . وكنت ترينني أكثر ماأكون دعاء أشد ما أكون عذابا . وقد شهدت الحقول جثوى ـ ولا يراني انسان ـ وأنا رافعة الى السماء كفين مرتجفتين وعينين دامعتين ، وخدين خددهما البكاء ـ أدعو الله أن يرعى اقامتك حيث لا أعلم ، وأن يطهرني بالألم وينقيني بالعقاب .

ان الطفلة التي سمعت بكاءها الحقول لهي أعز على أمها من طفلة اهتزت لمولدها المخادع وغنت لقدمها البيوت ، وأوقدت

فى سبوعها الشموع . لكن الناس وقفوا بينى وبينك ، فرميت بك للأقدار لأفر من نار العار .

أعيذك يا بنيتى أن يكتب لك ما كتب لى فى حياتى ، فان وضاءة جمالى خدعتنى فحسبت أن سلطان الجمال ليس يغلبه تغرير الرجال ولكننى كنت خاسرة .

تزوجت ابن عمى فلم أسعد وطلقت منه وشيكا وعشت فى رعاية جدك . وهو زارع صغير فى عزبة من العزب الكبيرة . وأقمنا فى القرية الأولى أسعد برعاية الأبوين وأنعم بنضارة الشباب ، حتى ساق القدر الى طريقى فتى من أغنياء الريف مثل دور العاشق وأحكم تمثيله . ووعدنى بالزواج فزللت .. وغاب عنى ....

ثم كانت طفلة لفت فى خرق وألقيت فى المزرعة . وتسامع الناس الخبر ــ على أنه كان مكتوما ــ فطردنى وأبوى رب العزبة ، واتنقلنا الى مزرعة أخرى فى شمال « البحيرة » حيث ماتت أمى وقاسيت أنا وأبى شظف العيش ، وآليت أن أقضى العمر مكفرة .

واشتدت بنا الأيام وأرسلت على زرعنا الآفات ، كأنما حمل أبى آثام أعمالى . وأخيرا مرضت كما ترينني فجاء بى جدك الى المستشفى وتركنى وعاد .

وأعيذك يا بنيتى أن يكتب لك ما كتب لى فى حياتى ، فانها سلسلة من بؤس ومتاعب وعنت وشقاء ، لم يكن فيها ضاحكه الا الحلقة الأولى .

قالت ليلى بعد أن قصت على أمها الصدر الأول من حياتها .

ــ وأنا مخطوبة ولكن بيني وبين خطيبي جفوة ...

ــ غدا تزول ... ومم حدثت ؟

ــ من آثار الماضي !

ــ لهف نفسي ! أهنا يذاع ؟

ــ ان الشر سريع الذيوع .

ــ لنا الله ! أرجو أن أموت هنا فاني مشرقة . ما كان يجب أن أظهر في أفقك أبدا يا ليلى ، ولكنني سبب لمغيب .

ــ ان ما بيننا لا يعرفه أحد .

ــ كما تقولين يا بنيتي .

وحوى المريضة السرير . ولا يزال القدر واقفا وقفة الآمر ليخرج من بين شفتيه كلمة !

٨

كان شيء من الجفوة لا يزال قائما بين ليلى وجمال خلقه لهما الحظ وبدعته لهما الأيام . فكان هو فى موقف الذى لا يأخذ ولا يدع ، وهى فى موقف المتريث الصابر .

وأوى جمال الى فراشه فى هذه الليلة ـــ كما أوى اليه فى كل ليلة عقب العودة ـــ كاسف البال مضطرب البلبال ، حاسبا لما تأتى به الأيام ألف حساب .

وطرق الباب فخف خادمه ليفتح ، وأوقد فى الحجرة الخارجية مصباح النور ، واستأذن الخادم على سيده وأبلغه أن أباه قد حضر ..

وأسرع جمال الى هناك ولما دخل عليه قرأ الشر فى أسارير وجهه : فقد كان الرجل كأنه ناهض من فراش مرض ، وقريب عهد بسقم . تغلب الصفرة على وجهه الأسمر ، ويجرى شيء من الحمرة فى بياض عينيه كمن أرق ليالى طوالا . ولم يكن معه شيء

من متاع السفر لأن المسافر غير راض ولا هادىء ولا مقيم .

وبدأه ابنه بتحية مهذبة ، ثم سأله عن حال من هناك فأجاب كمن يحفظ الاجابة .

ــ كلهم بخير ... وكلهم يحملوننى السلام اليك ... حتى الدكتور ك ...

ففهم كل شىء .

ــ أبى ... لقد أصبحنا فى موقف التكاشف ، وقد جئتنى فى الوقت المناسب ، فأنا فى موقف لا آخذ فيه ولا أدع . وأنا أعلم كل شىء من أمر هذه الفتاة لكننى حاولت أن أفرضها على المجتمع فلم أفلح . وأعلم أن الدم الريفى الذى يجرى فى عروقك هو نفس الدم الذى يجرى فى عروقى ، فأنا مثلك غيرة على الشرف ، وحرصا على التقاليد . غير أنى نفذت الى حقيقة الفتاة وعرفتها ... وأحببتها أيضا ... ويخيل الى حتى الآن أننى لا أستطيع أن أعيش بدونها ، الا اذا حدث ما يحول كل ما رسمته حيالها . فان كنت ضنينا بولدك فلا تحل بينه وبين زوجه ، ولا تكن من الذين يأخذون بالأوزار غير فاعليها ... وأنا حتى الآن لا أزال راجيا مطيعا !

وكان بين الاثنين موقف عاصف رأى فيه الآب اصرارا ماكان يتوقعه ، فأرغى وأزبد وخوف وهدد ، ولكن طار كل هذا أدراج الرياح .

وخيم السكون على الحجرة ساعة من زمن وغير الشيخ سلاحه فبدأ بياسر ولده :

(لقيطة)

ــ لا تنس يابنى ما لك من قيمة فى المجتمع وما لأسرتك من مكانة يشار اليها ، فلا تركب رأسك وتخضع لعاطفة ستبوخ حينما يضمكما فراش الزوجية ! غدا تندم يا جمال وتعلم أنك اخترت من لا تجرؤ على أن تعلن أمرها بين أقرانك ، وأن أبناءك سيسألونك يوما عن أخوالهم وأجدادهم فلا تجد لسؤالهم جوابا!

ــ اننى أريدها وحدها فلا ترهقنى يا آبى !

ــ أهكذا تحبها ؟ يا لك من مأفوك ! أنت غرير مغرر بك ... أقسمت لا أبيت عندك .

ودوت فى ظلام الليل ردة الباب والأب خارج يملؤه الغضب .

ولم تكن ليلى تعلم أن الذى بدت جفوته انما يكن لها الحب الخالص ويجاهد فى سبيلها التقاليد !

غير أن المقادير كانت تدبر مخلصا لمشكلة خلقتها والأحباب غافلون .

ولا يزال القدر واقفا وقفة الآمر ، ليخرج من بين شفتيه كلمة !

٩

ليس شيء من أنواع الحيرة أشد من حيرة المحب ؛ لأن القلب فيها يكون مشغولا بخلق المعاذير لحبيبه ، فاذا ما عرضت على العقل لفظها وأنكرها ، فيستأنف القلب عرضها من جديد ببرهان أقوى وحجة أثبت حتى تكون له الغلبة . فيقف العقل والمجتمع معا وقفة التعجب، ثم لاتلبث القضية أن تندمج في غمار الوجود ، وتفنى في تيار الزمان .

وهكذا نفسية جمال الذى وعد بأن يحمل حبيبته على كتفيه ليمر بها من عقبات المجتمع ، فتألبت عليه الأهــل والحوادث ، وأذاع الزمان ما فى ضميره من سر حتى ما بقيت فى ثناياه خلجة .

ظهرت كوكب فظهر الدكتور ك ... ثم ظهرت أمها ... وما بقى بعد ذلك من شيء .

وكان موقف أخير جمع الخطيبين فى حديقة ما هبطاها أيام نام عنهما الدهر . فجلسا على أحد مقاعدها متجاورين والبعد بينهما شاسع ، وقد بدا وجه ليلى ذليلا نحيلا كأنه زهرة من زهرات

الخريف . وفى عينيها الواسعتين انكسارة كأنها رميت بشين . ولم يكن يفوح من طيات ثوبها ولا تلافيف شعرها عطر .. كانت أشد ما تكون نقمة على جمالها فى هذا اليوم ؛ لأنه لفت اليها الأنظار وسار بها الى مواطن الاحراج .

وقال لها جمال أول ما رآها بانتظاره :

ـ معذرة فقد تخلفت قليلا .

ـ ليس هناك ما يدعو الى الاعتذار .

كانت نبراتها فارغة لا تومىء الى معنى ؛ لأنها اعتنقت فى هذا الموقف مبدأ تخيرته « اترك الدنيا التى تركتك » .

ـ ان جونا يملؤه السحاب !

ـ وماذا نعمل لو أنه أمطر؟ أنستطيع أن نقول للأرض: ابلعى ماءك أو للسماء أقلعى ؟ أو أن نتخذ من حبال المطر أسبابا نرقى بها الى السماء ؟ انما نفر من قضاء الله الى قدر الله ولن نغير من الواقع شيئا .

لقد نهكك الهم وأذواك الفكر فى غير طائل كأنك كنت أخذت المواثيق على الزمن بأن يمدك بسعادة أبدية ! هبنا تزوجنا ثم اختطفنى من بين يديك الموت ، فماذا كنت تفعل؟ لابد من فجيعة فى الأحباب طال الأمد أم قصر ... فجيعة حياة أو فجيعة موت وما يجب أن نرسل زورقنا والبحر هائج الا اذا حكمنا على أنفسنا بالهلاك . ولا بد أن يعلم أبواك بسرى لأن الزمن يثرثر بقصتى من يوم ميلادى . وما أظنه سيمسك !

يجب أن نروض النفس على الحرمان ، فذلك خير لنا من أن ندلف الى المائدة فننحى عنها ...

وبعد ، فان محملى عليك ثقيل ، وارتباطى بك يقطع ما بينك وبين أهلك من أواصر ، أفتراني أرضى بما يؤذيك ثم أدعى بعد ذلك أنني أحبك ؟ سأضحى بسعادتى من أجلك فعد الى أبويك وأنبئهما بأنك عدلت ، وسأعود الى حياة العزلة ، وأنفذ ما تمليه على الأيام !

ــ ترى أنت سالية أم متسلية ؟

ــ ما أنا بهذه ولا تلك ، وانما أنا ليلى التى تعرفها . غير أن بداية حياتنا صاخبة لا تبشر بالهدوء ولا السلام .

حسبك ما فات يا جمال ، وانج منى فأت لغيرى . وقد رآنا الناس نصفين غير منسجمين ، ولن تستطيع أن تسعد بى الا اذا عشنا فى ظلال غابة أو فضاء صحراء . أما السعادة بين الناس فهى فى أن يقول الناس : انه سعيد . والا ما تخيرت من ألوان ثيابك ما تظن أنه يفتن الأبصار .

نحن فى فورة من الحب أخاف أن يعقبها ركود من تعب واستجمام من عناء ، فأفقدك أو تفقدنى ونفترق متناكرين .

خير لى أن أطير عن روضتك عصفورا يودع الربيع لاعصفورا شرده الشتاء . ولتمسك على ما فى نفسك ولأمسك على ما فى نفسى ، فان ما عندنا لا يسر !

فابتسم متألما :

ــ كأنك تعلمين أن أبى قد جاء ، وأنه على علم بكل شىء .

ــ حدثنى بذلك قلبى فلا عليك يا جمال . لو كنت رجلا ما جزعت أبدا على امرأة ، لأنها سلعة معروضة أفتش فى سوقها عما يرضينى . أما الرجل فما كان سلعة قط !

ــ أنت تحملينني على أن أنساك بما تغضين من شأن المرأة ، وذلك غاية الاخلاص . ليلى : أنا جمال لم أتغير . وثقى بأننى لن أتغير ، وسيخضع لحبنا الزمان .

ــ لقد فات الأوان .

ــ وكيف فات ؟

ــ كتبت الى السيد الأمين لينقلنى الى مكان ليس بالقاهرة ولا الاسكندرية ، لأعيش حيث يجهلنى النـــاس . ولن أعيش وحدى !

ــ ومع من تعيشين ؟

قالت وهى مطرقة :

ــ مع أمى ... لقـــد ظهرت على الأفق ... انهـــا بين مرضى المستشفى . أفترانى بعد ذلك أصلح لك زوجا ؟

ودخلت الى قلب جمال مشكلة جديدة تريد وقتا من الزمن ليتغلب عليها القلب ويسيطر عليها الحب ، بعـــد أن تغلب القلب وسيطر الحب على موقف أبويه منه . فكان بينهما صمت وحيرة وذهول . وعادت العصافير فى الحديقة تسخر منهما بالشقشقة والأغصان تسخر بالتراقص ، وخيل اليهما أن السعادة فى مكان حصين لا يستطيعان أن يصلا اليه .

وباخت الفورة وفترت الحمية ، والتقت العيون وتساءلت في صمت :

ــ ترى ماذا عسانا أن نفعل ؟

ونهض الحبيبان معا كأنما أتياه على أثر ضغطة زر ، وسارا صامتين كليلة سارا على سيف البحر قبل أن يتحابا ، كأنهما منصتان الى وقع أقدامهما .

وتواقفا للوداع فسلما وقال جمال :

ــ لننتظر يا ليلى ما يأتى به الغد !

فقالت في تشاؤم :

ــ أجل لننتظر ما يأتى به الغد ، فلعله ادخر لنا ما لم يدخل في حسابنا .

وقال لها :

ــ وداعا .

فرفعت صوتها :

ــ وداعا .....

ولكنها قالت في نفسها والقلب باك والطرف ساكن :

ــ وداعا .... الى الأبد ؟

١٠

تماثلت الأم للشفاء ثم غادرت المستشفى وشاركت ابنتها حجرتها ردحا من الزمن . وبقيت ليلى فى انتظار النقل بعد أن وعدها السيد الأمين بالتنفيذ . وكانت أيامها عليها حلوة وثقيلة . تريد أن تستبقيها لتنعم بخطيبها من بعد ، وتريد أن تمر ليسدل على قصتها الستار . أما جمال : فكان يدور فى حلقة مفرغة لا ينتهى منها الا ليبدأ ، وينظر الى قطعة من قلبه تدور فى أنحاء المستشفى ولا يستطيع ضمها اليه .

وجرى العمل فى المستشفى كما يجرى كل يوم ، ووقفت طائفة من الممرضات يعقمن أدوات الجراحة بعد العمليات ، وكانت ليلى بينهن تعمل وهى ذاهلة شاردة . وانبعثت من فمها آنة .

فسألتها احداهن :

ـ ماذا حدث يا ليلى ؟

ـ ان المشرط جرحنى .

ـ لهف نفسى ! سارعى بتطهير اصبعك .

وصبت على اصبعها قليلا من الغول .

وسار العمل كأنه ما حدث شيء .

وحل المساء فأحست أن يدها تؤلمها ولكنها لم تساير الوساوس وأعرضت عن نفسها حتى الصباح ، ونفضت عنها غطاءها ونهضت متغيرة الوجه عابسة القسمات ، فسألتها أمها عما بها ، فأخبرتها أن جرحا هينا باحدى يديها .

ولما كانت فى المستشفى عرضت نفسها على الأطبـة فألفوا حرارتها مرتفعة .

وأخذت الحوادث تجرى بسرعة ، فما حل اليوم الثانى حتى كانت ليلى على أحد أسرة المرضى غائبة عن وعيها لآن جسمها قد تسمم .

ولو كنت شاهدها لأبصرت حولها جماعة من الأطباء وبينهم الدكتور جمال وكلهم فى وجوم وأسف ، يدافعون عنها القضاء والقضاء لا يدفع ، وقال كبيرهم :

ــ ان الحالة خطيرة وما أظن أن المرض سيقف ، ولا بد من بتر الساعد .

قال جمال :

ــ أظن ذلك ... ولكن ... أليست هناك معجزة ؟

ــ انها من السماء ... وينتظرها الطب بعد أن يؤدى عمله !

وخرجوا جميعا وعاد جمال ، وانتبهت ليلى من الغيبوبة قليلا، ووقف الحبيب ليلقى الى حبيبته بأسوأ الأخبار ، لأنه ينطق عن لسان القدر . فقال وعيناه تسبحان فى الدمع :

ـــ ليلى ... لابد أن تنصتى الى كلمتى : اننا لم نستطع للبلاء دفعا ، ولكن لابد أن تعيشى .

فقالت فى استسلام وخضوع :

ـــ ماذا هناك يا جمال ؟

ـــ ان ذراعك قد فسدت ، ولكن لابد أن تعيشى .

ـــ أتريدون أن تقطعوها ؟

ـــ بل يريد الله !

ـــ وعجز الطب يا جمال ؟

ـــ والحب يا ليلى ؟

فاستوت على السرير حتى كانت نصف جالسة وقد تهدل شعرها الأصفر وتشعثت ذوائبه لما أهمله المشط ، وبدا اتساع العينين أكثر لأن الوجه ناحل سقيم ، وأمسكت كفه بكفها السليمة وأخذتها نوبة من البكاء جعلت تقول :

ـــ أتريدون أن تقطعوها يا جمال ؟ كلا لا تقطعوها ... لقد نبذتنى الحياة أنضر ماأكون ، فكيف بىاذا عشت بذراع واحدة؟ وقد فر الناس من جمالى ، فكيف يقبلون على فتاة شوهاء ؟

لم يشفع للزهرة العطر ، فكيف يحملونها غير نفاحة ؟ ولم يشفع للبدر التمام ، فكيف يطالعونه فى ساعة الخسوف ؟

دعونى أمت ، فقد رقدت هذه الرقدة وأنا طفلة ولكنى لم أمت ، لأننى استيقظت لأداء حساب وقد أديته ، ولم يستطع الزمن أن يحل مشكلتى وقد حلها المشرط . لا تأس على شىء فاننا ما خلقنا للخلود ! !

واشتد عليه الموقف فولاها ظهره وخرج ، وذاع فى المستشفى أن ليلى لم تطق أن تعيش بذراع مبتورة . وأخذ الطب يجمع الأعاجيب والقضاء أيضا يجمع الأعاجيب ، والسم يسرى فى البدن اللدن سريان الماء فى العود حتى رفعت راية التسليم .

واستحال كل شىء فى ليلى وحال . ورفرف القضاء على سريرها ليقع .

لقد ذوى العود وعريت الأشاجع واسود ما حول المحاجر ، ولم يبق من آثار الجمال الذى يعد قديما الا خضرة فى العينين وأهداب طوال . وخفت الصوت وذهبت برنينه البحة واسترجعت الحياة آثارها وألقى الموت على الوجه ظلاله ، وبدأ العمر يعد بالساعات .

ووقف بجانب السرير حبيبان أحدهما ناقم على الطب ، والآخر يستنجد الطب فى لهفة وبلاهة .

كان الأول جمالا والثانى أم ليلى التى لبست السواد وأخذت تردد :

ــ ألا تملك لها شيئا يا دكتور ؟

لقد ألقتها للموت منذ ثمانية عشر عاما ، ثم جاءت لتستنقذها من الموت .

وأخذ مصباح عمرها يشتف ما بقى من الزيت ، ليرسل الى الواقفين بآخر شعاع ، فأمر جمال أم ليلى بأن تخرج لأنه سيسعفها بشىء .



ـ وعجز الطب ياجمال ؟

ـ والحب يا ليـــلى ! !

ومالت المرأة على ثغر فتاتها فقبلته وخرجت ، ونبهها الطبيب بما أطاق ليتزود بكلمة ممن كان يرجو أن تكون شمس بيته وريحانة وجوده ، وقال لها :

ــ ليلى ... أتعرفينني ؟

فخرجت من شفتيها بسمة ضئيلة كأنها آتية من العالم الآخر وأومأت اليه بأن يدنى أذنه من فمها وقالت :

ــ جمال ... أنا مستريحة ... فلن أشقى ... فى العالم الآخر . . اذكر . . الخميس . . أضحم شجرة . . على عين . . . الطريق .

وثقلت أجفانها وأغمضت ... ثم انفتحت نصف فتحة .

ومال الرأس على الوسادة ، وغابت عن الوجه بشاشة الأحياء ، وأرسل الفم كلمة واحدة خافتة كأنها أعقاب صدى مول :

ــ وداعا ...

فخطف جمال من الموت قبلة .

وتخلى القدر عن موقف الآمر ؛ لأنه أخرج من بين شفتيه الكلمة !

ثم جيء بالأم وأخبرت بأن الأمر قد انقضى ، ورددت أفواه كثيرة : انا لله !

وأقلت القطر التى تسافر نحو الجنوب أم ليلى ، وقد عفر أقدامها تراب المقبرة ، وجمالا الذى لم يطق المقام فى الاسكندرية. بات ليلته عند أهله وأخبرهم أن القضاء قد فض الخصام ، وأن ليلى باتت فى العالم الهادىء ، وتركت الدنيا ونظام الطبقات .

وكان الحزن آخذا منه كل مأخذ حتى رثى له أبواه ، وجعلا يصبرانه ويسليانه ، وقد كانا بالأمس عذاله ولوامه .

وجنحت شمس اليوم التالى الى المغيب فى غروب حـزين ، وجمال واقف بجانب أضخم شجرة على عين الطريق .. لكنه كان وحده وكأنه فى محراب !

لقد ودعا فى الأيام الخوالى أسـعد شمس ، وها هو ذا اليوم وحده يودع أتعس شمس !

واذا كان جمال فى القرية تردد على الطريق جيئة وذهوبا . واذا كان فى الاسكندرية تردد على المقبرة .

ومر الزمن ... فنسى ذكر ملجأ ج ... ومستشفى الدكتور ك ومستشفى الاسكندرية الأميرى .

وتجمع على المقبرة تراب كثـير ، وأمسكت الأيام عن ذكر ليلى وفرغت من شئونها الأقدار ! !

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٨٢٨٥
الترقيم الدولى : ٢ ــ ٠٥٦١ ــ ١١ ــ ٩٧٧

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



Bibliotheca Alexandrina
0294229
2.736
عبد
ل

الثمن ٥٢٥ قرشًا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه